قلب كلب

ميخائيل بولغاكوف



ترجمة نوفل نيوف


mohamed khatab

قلب كلب

تأليف
ميخائيل بولغاكوف

ترجمة
نوفل نيوف



قلب كلب

ميخائيل بولغاكوف

Собачье сердце

Mikhail Bulgakov

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٥٧٤ ٥

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الروسية عام ١٩٢٥.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠٠٧.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

المحتويات

ميخائيل بولغاكَف (١٨٩١–١٩٤٠م)

وُلد ميخائيل بولغاكف سنة ١٨٩١م في مدينة **كييف**، حيث تعلَّم وأصبح طبيبًا، أدركته ثورة أكتوبر ١٩١٧م وهو في السادسة والعشرين من عمره. وبنشوب الحرب الأهلية في الإمبراطورية الروسية القيصرية المنهارة وجد نفسه سنة ١٩١٩م في صفوف البيض؛ أعداء الثورة، يعمل طبيبًا عسكريًّا في جبهة القوقاز، وفي مدينة **غروزني** الشيشانية التي أصبحت اليوم أشهر من أن تُعرَّف، هل كان تعاونه مع البيض اختيارًا أم نتيجة ظروف وملابسات، طوعًا أم تجنيدًا؟ تصعب الإجابة اليوم بغياب الوثائق والشهادات، سيما وأننا لا نميل إلى التخمين والتبسيط المُجحف في النظر إلى أمورٍ على هذا القدر من التعقيد.

كان **لميخائيل بولغاكَف** شقيقان ضابطان حاربا في صفوف البيض ثم هاجرا، مع فلول المهزومين، إلى أوروبا الغربية. أما **بولغاكَف** نفسه — الطبيب والكاتب — فقد كان أحد كثيرين أصيبوا بوباء التيفوئيد الفتَّاك سنة ١٩٢٠م إصابة ظُن أنها قاتلة، لكنه شُفي وانضم إلى صف الثورة في نيسان/أبريل ١٩٢٠م، تاركًا مهنة الطب، ناذرًا نفسه للأدب، وفي خريف ١٩٢١م انتقل إلى موسكو وألقى بنفسه في ما يمكن أن نسميه — دونما خوف من تهويل — حربًا ضروسًا في الثقافة/الحياة الروسية بشتَّى جوانبها وتجلياتها … كان خصومه من الأدباء هم الأقوى من الناحية السياسية، يرون في الأدب منبرًا أيديولوجيًّا صريحًا وصداميًّا قبل كل شيء، وما كان **لبولغاكف** وأمثاله من الموهوبين الشرفاء إلا أن يتجاوزوا هذه الشرنقة الضيقة ليقفوا مع الحق والحياة/مع الفن المبدع، دون أن يغضُّوا الطرف عن الانتهاكات والضلالات والأخطاء، دون أن يسمحوا للتيار بجرفهم حيث شاء. كان **بولغاكف** إنسانًا متماسك الشخصية، ثاقب النظر، شجاعًا بتعقُّل، جدَّد في الأدب ولاقى التقدير مثلما لاقى الإنكار والويلات. كان قلمه متهكمًا، ساخرًا، لاذعًا … فلم يزدد

معسكر خصومه إلا تعنتًا وسبابًا وتهويشًا، يوم أصدر مجموعة قصصية («الشيطانيات» ١٩٢٥م) مبنيَّة — في تقنيتها — على الفنتازيا المُرة والنقد العميق لجوانب بالغة الأهمية في الإنسان والحياة — يومذاك — على السواء.

في مطلع سنة ١٩٢٥م أيضًا كان قد أنجز قصته الطويلة «**قَلْبُ كلب**» التي حذَّره أصدقاؤه من نشرها، فبقيت أكثر من ستين سنة بعيدة عن متناول يد القارئ الروسي، حيث لم تُنشر في روسيا إلا سنة ١٩٨٧م، ومنذ ذلك التاريخ تكرر نشرها مرارًا يصعب حصرها، وذلك في مرحلةٍ لا تقل تعقيدًا عن مرحلة كتابتها، ما جعل كثيرين من القراء لا يرون فيها أكثر من نبوءةٍ سياسية، إبداعية، سوداء، نفَّاذة لا تُضاهى.

لقد انفجرت خلافات **بولغاكف** مع خصومه أشد انفجار بسبب نشاطه المسرحي في أهم مسارح موسكو **(مخات)**، ولا سيما مسرحيته «**أيام عائلة توربين**» التي حضرها ستالين نفسه خمس عشرة مرة، ولم يحمِه من حملة الخصوم وتهجماتهم والتحريض العلني عليه لا دفاع **لونَتشارْسكي** ولا تقدير **غوركي** ولا العمل مع **ستانسلافسكي**، فمُنعت المسرحية أخيرًا من العرض.

سنة ١٩٣٠م بلغ العداء ضده حدًّا لا يُحتمل، فتوجه إلى الحكومة السوفييتية برسالةٍ أسفرت عن مكالمةٍ هاتفية أجراها معه **ستالن** في بيته في ١٨ نيسان/أبريل، كانت موجزة ودقيقة. قال له **ستالن**: «لقد استلمنا رسالتك، وقرأناها مع الرفاق، وستتلقى إجابةً حسنة عليها.»

ثم سأله **ستالن**: «لعلنا، حقًّا، نسمح لك بالهجرة؟»

فأجاب **بولغاكَف** بوضوح: «لقد فكرت طويلًا في المدة الأخيرة: هل يستطيع كاتبٌ روسي أن يعيش خارج وطنه؟ ويبدو لي أنه لا يستطيع.»

رد عليه **ستالن**: «أنت على حق. إنني أفكر مثلك.»

وأنهى المكالمة.

لم يعد **بولغاكَف** مجهولًا للقارئ العربي بعد ترجمة روايته الشهيرة «**المعلم ومرغريتا**». ولعل ترجمة «**قلْبُ كلْب**» تكون خطوة إلى الأمام في إضاءة صورة هذا الكاتب الروسي الذي يمثل جزءًا هامًّا من خريطة أدب وطنه الذي رفع رايته عاليًا كلٌّ من **دستيفسكي وتلصتوي وتشيخف** وغيرهم …

د. نوفل نيوف

الفصل الأول

عو-و-و-و-عو-عوو! آه، انظروا إليَّ. إنني أهلِك، العاصفة وراء البوابة تنشد لي صلاة الوداع وأنا أعوي معها.

هالكٌ أنا، هالك. ذلك السافل الذي يعتمر قبعة قذرة، طباخ مطعم التغذية العادية لموظفي مجلس الاقتصاد الوطني المركزي، رشقني بماءٍ غالٍ فسلق خاصرتي اليسرى. يا له من وغد! إنه بروليتاري كذلك! يا إلهي، كم أتألم! لقد بلغ الماء الغالي عظامي، وها أنا أعوي الآن، أعوي، أعوي، ولكن هل يفيد العواء؟

فيمَ ضايقته؟ فيم؟ هل سوف ألتهم مجلس الاقتصاد الوطني إذا ما رحت أنبش البالوعة؟ يا للدودة الجشعة! انظروا مرة إلى سحنته، فعرضه أكبر من طوله. إنه لصٌّ ببوزٍ نحاسي. آه، أيها البشر، أيها البشر. لقد رماني هذا التافه بماءٍ غالٍ في رابعة النهار. أما الآن فقد أظلمت، والساعة تقارب الرابعة بعد الظهر، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار رائحة البصل التي تفوح من فرقة الإطفائية في شارع بريتشيستِنْسكيا. فالإطفائيون يتعشَّون بُرْغُلًا، كما تعلمون، ولكنَّ هذا أسوأ شيء. إنه أشبه بالفطر. إن زملائي الكلاب من بريتشيستِنْسكيا قد حدَّثوني، على أية حال، بأن الناس في شارع نيغلينِّي يتناولون في مطعم اسمه «بار» طَبَقًا لا يتغير، قوامه الفطر مع صلصة «بيكان» بـ ٣ روبلات و٧٥ كوبِّيكًا للوجبة الواحدة. إنها مسألة أذواق، تمامًا مثل لعْق الحذاء ... عو-و-و ...

في خاصرتي ألمٌ لا يطاق، وحدود مستقبلي واضحة لي تمامًا. إذ غدًا ستبدأ القروح بالظهور، وإني لأتساءل: بماذا سأداويها؟ في الصيف أستطيع الذهاب إلى حيٍّ صكولنكي، فهناك يوجد نبات ممتاز أخضر ومن نوعٍ خاص، كما أنك ستُتخم مجانًا مما يرميه المواطنون من بقايا السجق، وتشبع من لحس الأوراق الملوثة بالدهن. ولولا هذه الشريرة التي تُغني «عايدة الغالية» من فوق دائرة في ضوء القمر بصوتٍ تتقطع له نياط القلب،

لكان الأمر ممتازًا. أما الآن فإلى أين تذهب؟ أما ركلوك على مؤخرتك بالحذاء؟ ركلوك. أما كانت أحجار القرميد تصيب أضلاعك؟ بلى. لقد نلت ما فيه الكفاية. لقد عانيتُ كل شيء. وإنني قانعٌ بمصيري، ولئن كنت أبكي الآن فإنما بسبب الألم والبرد؛ لأن روحي لم تهمد بعد … روح الكلاب صبورة.

أما جسمي فإنه مُحطم، مُكسر؛ فلشدَّ ما تمتع الناس بتعذيبي. والشيء الأهم هو كيف قذفني بالماء الغالي فاخترق جلدي، ويبدو أنه لم يعد ثمة ما أحمي به جنبي الأيسر إطلاقًا، فأنا مُعرَّض الآن وبكل بساطةٍ للإصابة بالتهاب الرئتين، وإذا ما أُصبت به فإنني، أيها المواطنون، سأفطس من الجوع. إن الإصابة بالتهاب الرئتين تتطلب استلقاءً في الممر الرئيسي تحت الدرج، ولكن مَنْ سيركض عندئذٍ عوضًا عني، أنا الكلب العازب الطريح، فيجري بين صناديق القمامة بحثًا عن الطعام؟ وإذا ما أصيبت رئتي سأزحف على بطني حتى يبلغ الضعف بي حدًّا يسمح لأي مختص أن يوجه لي ضربة بعصاه تودي بي إلى الموت، ثم يجرُّني الكناسون من رجليَّ بخطافين ويلقون بي في العربة …

إن الكناسين هم أحطُّ وأنذل أنواع البروليتاريين جميعًا. إنهم النفايات البشرية وأسفل الدرجات، والطباخون أنواع. هناك، مثلًا، المرحوم فلاص من شارع بريتشيستِنْسكَيا. ما أكثر الذين أنقذ حياتهم؛ ذلك أن الشيء الأهم وقت المرض هو الحصول على لقمة. وهكذا كان يحدث، كما تذكر الكلاب المُسنة، أن يرمي فلاص عظمًا يكون عليه نصف أوقية من اللحم. أسكنه الله فسيح جنانه؛ فقد كان شخصية أصيلة، وطباخًا راقيًا عند عائلة تلصتوي، وليس واحدًا من مجلس التغذية العادية. إن ما يقومون به من أعمالٍ هناك، في التغذية العادية، أمرٌ لا يدركه عقل كلب! فهم أنفسهم، السفلة، يطبخون حساء الحُمَّيض من لحمٍ مملَّح نتن، بينما لا يعرف أولئك المساكين شيئًا عن ذلك. إنهم يركضون، يحشون بطونهم، يلعقون.

هناك عاملة على الآلة الكاتبة مرتَّبُها من الدرجة التاسعة خمسة وأربعون روبلًا، إلا أن عشيقها في الحقيقة سوف يهديها جوارب من نوع فيلديبيرس. ولكن كم عليها أن تتحمل من إهاناتٍ في سبيل هذه الفيلديبيرس! فهو لا يأخذها بإحدى الطرق العادية، بل بطريقة الحب الفرنسي. الحكي بيننا، يا لهؤلاء الفرنسيين من أوغاد! رغم أنهم يأكلون طعامًا فاخرًا ويتناولون النبيذ الأحمر دائمًا. نعم … تأتي هذه العاملة المسكينة راكضة؛ إذ إنك لا تستطيع الذهاب إلى «بار» ومرتَّبك خمسة وأربعون روبلًا. إنها لا تستطيع الذهاب إلى السينما أيضًا، مع أن السينما هي العزاء الوحيد للنساء في الحياة.

إنها ترتجف وتقطِّب، ولكنها تأكل ... تصوروا فقط: ٤٠ كوبيكًا ثمن طبقين، في حين أن الطبقين معًا لا يساويان خمسة عشر كوبيكًا؛ لأن المحاسب يسرق الـ ٢٥ كوبيكًا الأخرى، فهل هي بحاجةٍ إلى مثل هذه الوجبة؟ إن أعلى رئتها اليمنى ليس سليمًا كذلك. وهي تشكو من مرضٍ نسائي جرَّاء الحب الفرنسي، وقد اقتطعوا في العمل من مرتبها ثمن الطعام الفاسد، تلك هي، هي ذي! إنها تجري صوب البوابة بالجوارب المُهداة لها من عشيقها، رجلاها باردتان وبطنها مقرور؛ لأن الصوف الذي عليها شبيه بصوفي، وهي ترتدي سروالًا باردًا أيضًا، ما هو إلا قطعة صغيرة من الدانتيلا. خِرقة من أجل عشيقها، فلو حاولت ارتداء سروال من الفانيلَّا لزعق عشيقها قائلًا: ما أبعدك عن الأناقة! لقد مللت زوجتي ماتريونا وشبعت عذابًا من سراويل الفانيلَّا. أما الآن فقد جاءت فرصتي. أنا الآن مدير، وكل ما أسرقه سأنفقه على جسد المرأة، والقريدس وشمبانيا أبراو-درسو. فلطالما جُعت في شبابي، ويكفيني ذلك؛ لأنه لا وجود للحياة بعد الموت.

كم أشفق عليها، كم أشفق! ولكنني أكثر إشفاقًا على نفسي. إنني لا أتكلم بدافع الأنانية، كلَّا، بل لأننا حقًّا لسنا في ظروفٍ متكافئة. فهي على الأقل تشعر بدفء البيت. أما أنا، أنا ... فإلى أين أذهب؟ أنا المُكسَّر، المُمزق، المنبوذ، فإلى أين أذهب؟ عو-و-و-و!

– كوت، كوت، كوت! شارك، يا شارك ... ما لك تهرُّ، أيها البائس؟ من أزعجك؟ أوخ ...

عبثت بالبوابة عاصفةٌ ثلجية، جافة، شريرة، وصفعت السيدة على وجهها كما لو بمكنسةٍ شائكة، فرفعت تنورتها إلى الركبتين وكشفت جوربيها اللذين بلون بشرتها، وشريطًا ضيقًا من الدانتيلا الداخلية المغسولة غسلًا رديئًا، وخنقت الكلام واجتاحت الكلب.

يا إلهي ... ما هذا الطقس ... أوخ ... إن بطني يؤلمني أيضًا. إنه اللحم المملح، اللحم المملح! متى سينتهي كل هذا؟

أحنت السيدة رأسها وثابرت على اندفاعها حتى انفلتت عبْر البوابة، فراحت العاصفة في الشارع تلفها، تدور بها وتتقاذفها، ثم لولبتها زوبعة ثلجية، حتى غيبتها.

أما الكلب فبقي وراء البوابة والتصق بالجدار البارد متألمًا من خاصرته الممزقة، وأحس باختناقٍ فكرر بحزم أنه لن يغادر هذا المكان بعد الآن أبدًا، فليفطس هنا وراء البوابة. لقد غلبه القنوط؛ إذ كان في أعماق نفسه من الألم والمرارة، ومن الوحدانية والرعب قدرٌ جعل دموعه الكلبية الضئيلة تتدحرج من عينيه كالدمامل وتجمَّد في الحال. كانت خاصرته الخَرِبَة ترتجف بكتلٍ متدلية جمَّدها البرد، تتراءى بينها آثار الماء الغالي بقعًا

حمراء فظيعة. يا لتفاهة الطباخين وحمقهم وقسوتهم! نادته: «شارك» ... إلى الشيطان، أي «شارك» هو؟ فكلمة «شارك» معناها الكروي، المكتنز، الغبي، الذي يأكل البزر، كريم المحتد ... أما هو فليس إلا كلبًا شريدًا، طويلًا، ضامرًا، أشعث، وفي جميع الأحوال، شكرًا على الكلمة الطيبة.

انصفق الباب المطل على الشارع في مخزنٍ باهر الإضاءة، وخرج منه مواطن. إنه بالضبط مواطن، وليس رفيقًا، بل هو — بالأحرى — سيد. كلما ازداد قربًا زاد وضوحًا أنه سيد، تظنون أنني أحكم عليه بمعطفه؟ هراء، فثمَّة الآن كثيرون حتى بين البروليتاريين يرتدون المعاطف. حقًّا؛ إن القبة ليست من هذا الطراز، لا خلاف في الأمر، ولكن رغم ذلك قد تُخطئ في تمييزها من بعيد. أما العينان فإنك لا تخطئهما لا من قريبٍ ولا من بعيد، أوه، العينان شيء هام. إنهما أشبه بالبارومتر؛ فيهما ترى كل شيء: مَن في روحه جوهر عظيم، ومَن يستطيع دونما سبب أن يوجِّه إلى أضلاعك لبطة برأس حذائه، ومن يخاف كل شيء. والمنافق الكبير تحديدًا هو مَن يطيب عضُّه في ساقه عادة: خذ إن كنت تخاف، ما دمت تخاف، فأنت إذن تستحقه ... ر-ر-ر ... عا-عاو ...

اجتاز السيد الشارع بثقة، وشقَّ عمود الزوبعة متقدمًا نحو البوابة. نعم، نعم، كل شيء واضح في هذا الرجل. إنه ليس ممن يتناولون الحساء المالح النتن. وإذا ما قدَّموه له في مكانٍ ما فإنه سيثير فضيحة كبرى ويكتب إلى الجرائد: إنهم يغشون طعامي أنا، فيليبَفِتْش ...

هو ذا يزداد قربًا. إنه يتغذى جيدًا ولا يسرق، وهو لن يركلني برجله، بل وهو لا يخاف أحدًا. أما أنه لا يخاف أحدًا فذلك لأنه شبِع دومًا. إنه سيدٌ من المثقفين، له لحية فرنسية صغيرة محدَّبة، وشاربان كثَّان فارهان وخطَهما الشيب كشوارب الفرسان الفرنسيين، إلا أن الرائحة المنبعثة منه عبر الزوبعة كريهة. إنها رائحة مستشفى ورائحة سيكار. والسؤال هو: أي شيطان يا ترى جاء به إلى الجمعية السكنية للاقتصاد المركزي؟ هو ذا بجانبي ... فعمَّ يبحث؟ عو-و ... ماذا بوسعه أن يشتري في حانوتٍ تافه؟ هل يا ترى قليل عليه شارع أخوتني؟ ما هذا؟! سُ-جُ-ق، لو رأيت، أيها السيد، ممَّ يصنعون هذا السجق لما كنت اقتربت من المخزن، أعطني إيَّاه!

استجمع الكلب بقايا قواه، وزحف بجنونٍ من البوابة إلى الرصيف. انفجرت العاصفة كالطلقة فوق رأسه، وعصفت بالأحرف الكبيرة على قماش يافطة كُتب عليها: «هل يمكن تجديد الشباب؟»

– طبيعي. ذلك ممكن. لقد جددت الرائحة شبابي، نفخت بطني، وضغطت بأمواجٍ حارقة على معدتي الخاوية منذ يومين، تلك الرائحة التي غلبت المستشفى، رائحةٌ رائعةٌ مبعثها لحم حصان مفروم مع الثوم والفلفل، أشعر وأعرف أن في الجيب الأيمن لمعطفه الفرو سجقًّا. إنه فوقي. يا إلهي! انظر إليَّ. إنني أموت! إن روح العبيد فينا هي قدرنا اللعين!

زحف الكلب على بطنه مثل أفعى ودموعه تنهال مدرارة. انتبه إلى ما فعله بي الطباخون، إلا أنك لن تعطيني السجق بحالٍ من الأحوال. آخ، فأنا أعرف الأغنياء معرفةً جيدة جدًّا! وفي الحقيقة، ما حاجتك لهذا السجق؟ أي حاجة بك للحم حصان عفن؟ إنك لن تجد مثل هذا السم في أي مكانٍ إلا في معمل موسكو للصناعات الزراعية، وهل أفطرت اليوم أنت، يا من شأنك عظيم بسبب غددك الجنسية الذكرية.

عو–و–و …

ما هذا الذي يحدث في الدنيا؟ يبدو أنه ما زال الوقت مبكرًا للموت. أما اليأس فإثم حقيقي. لا يبقى إلا أن تلحس يديه.

انحنى السيد اللغز المحير إلى الكلب، وشعشعت حواشي نظارتيه الذهبية وأخرج من جيبه الأيمن صرة طويلة بيضاء. ودون أن يخلع قفازيه البنيَّين حل الورقة التي استولت عليها العاصفة حالًا، فقطع بعضًا من السجق المُسمى «كراكَف المتميز»، وألقم الكلب هذه القطعة، فيا للشخصية النزيهة! عو–و–و!

– فيت–فيت. صفَّر السيد وأضاف بصوتٍ صارم: خذ! «شارك، يا شارك!»

– مرة أخرى «شارك». لقد ذهب لقبًا لي، فلتسمِّني كما تشاء كُرمى لتصرفك الفريد هذا.

وبلحظةٍ مزَّق القشرة وراح يلهث وهو يقضم سجق كراكَف ويأتي عليه بسرعةٍ خاطفة. وإبان ذلك غص بالسجق والثلج حتى سالت دموعه؛ ذلك أنه لجشعه كاد يبتلع الخيط.

– زد، زد، ألحس يدك، أقبِّل بنطلونك أيها المحسن!

– يكفي الآن … قال السيد بأناةٍ كمن يلقي أمرًا. ثم انحنى صوب «شارك» ونظر في عينيه مستطلعًا. وفجأة مرَّر يده ذات القفاز على بطن شارك بألفةٍ وحنان.

– آها، ذَكَرٌ! — نطقها السيد بمعانٍ كثيرة — وبدون رسن! ذلك أمرٌ رائع، فأنت من أبحث عنه، اتبعني — وفرقع بإصبعيه … فيت–فيت!

– أن أمشي وراءك؟ سأتبعك إلى آخر الدنيا. ولتركلني بحذائك اللُّبَّادي، فلن أنبس ببنت شفة.

كانت المصابيح تلمع في شارع بريتشيستِنْسكَيا كله. وكانت خاصرة شارك تؤلمه على نحوٍ لا يطاق، إلا أنه كان ينسى أحيانًا ذلك الألم وهو مأخوذ بفكرةٍ واحدة هي ألا يُضَيِّعَ في الزحام، هذا الحلمَ الرائع ذا المعطف الفرو، وأن يعبر له بطريقةٍ ما عن حبه وإخلاصه. على أنه قد عَبَّر عن ذلك حوالي سبع مرات على طول بريتشيستِنْسكَيا وحتى زقاق أبوخَف؛ فقد قبَّل حذاءه عند زقاق ميورتْفي، وبينما كان ينظف له الطريق أطلق عواء وحشيًّا شدَّ ما أفزع سيدة فأقعدها على دكة، ثم هرَّ مرتين ليعزز الشفقة على نفسه.

وثب قطٌّ شريد وغد من نوع سيبيري من وراء ميزاب عندما أحس بسجق كراكَف، على الرغم من العاصفة. وعميت بصيرة شارك حين خطر له أن هذا الغني الغريب الأطوار الذي يجمع الكلاب الجريحة من تحت عتبات البوابات سيصطحب هذا اللص أيضًا، فيضطره ذلك أن يتقاسم معه إنتاج معمل موسكو للصناعات الزراعية؛ لذلك أطلقت أسنانه على القط صريفًا جعله يلوذ بالفرار متسلقًا الميزاب حتى الطابق الثاني، ويصدر فحيحًا أشبه بصوت أنبوب ماء مثقوب.

– ف-ر-ر-ر... عاو! انصرِف! هكذا! إنك لن تدخر من صناعات موسكو الزراعية ما يكفيك لكل صعلوكٍ يتسكع في بريتشيستِنْسكَيا.

قدَّر السيد إخلاص الكلب، ولما وصلا فرقة الإطفاء بالضبط، واقتربا من النافذة التي كانت تترامى منها دمدمة بوق طيبة، كافأه بقطعة سجق ثانية أصغر من الأولى، تزن حوالي عشرين غرامًا.

يا له من غريب الأطوار. إنه يلتمسني، لا تقلق! فأنا نفسي لن أغادرك، بل سوف أتبعك أينما تأمر.

– فيت-فيت! إلى هنا!

– إلى أبوخَف؟ تفضل. إننا نعرف جيدًا هذا الزقاق.

– فيت-فيت!

– إلى هنا؟ بكل سرور ... إي، كلا، عفوك! كلا! ثمة بواب. ولا يوجد في الدنيا ما هو أسوأ من ذلك. إنه أخطر من الكنَّاس بمراتٍ كثيرة. جنسٌ مكروه تمامًا. أنجس من القطط. سفَّاح أنيق.

– تعال، لا تخف.

– أتمنى لك الصحة، يا فيليب فيليبَفِتْش.

– مرحبًا، يا فيودَرْ.

يا له من شخصية! يا إلهي! إلى من أسلمتني يا قدري الكلبي! مَن يكون هذا الذي يستطيع أمام أعين البوابين أن يُدخل كلابًا من الشارع إلى عمارة الجمعية السكنية؟ انظروا، فإن هذا النذل لم يصدر عنه صوت أو حركة! حقًّا إن عينيه غائمتان، ولكنه بالجملة لا مبالٍ ويرتدي قبعة موشَّاة بخيوطٍ ذهبية، لكأن هذا ما يجب أن يكون. إنه يحترمه، أيها السادة، وكم يحترمه! أجل يا سيد، فأنا معه وأسير خلفه، ماذا، هل مسستك؟ طز. ليتني أعضه في رجله البروليتارية المدملة هذه. جزاء جميع أنواع تعذيبنا على أيدي أمثالك. كم مرة شوهتم خطمي بالمكنسة، آ؟

– تعالَ، تعال.

– نفهم، نفهم. لا تقلق. إنني ماضٍ إلى حيث أنت. فقط دُلني على الطريق، وعندئذٍ لن أتأخر، على الرغم من فرط الألم في خاصرتي.

من السلم إلى تحت: هل من رسائل يا فيودَرْ؟

من تحت إلى السلم باحترام: كلا، يا فيليب فيليبَفِتْش (جاء الرد حالًا بحميميةٍ وصوتٍ هامس). إنهم أسكنوا لجنة السكن في الشقة الثالثة.

وعلى درجة السلم استدار السيد المبجل، المحسن على الكلاب، استدارة مفاجئة، ثم انحنى فوق الحاجز وسأل برعب: آ–ا؟

أصبحت عيناه دائرتين ووقف شَعر شاربيه.

رفع البواب الذي في الأسفل رأسه، وقرب كفه من شفتيه، ثم أكد: هكذا تمامًا، أربعة رءوس بالضبط.

– يا إلهي! إنني أتصور ما الذي سيحدث الآن في الشقة.

وماذا عنهم؟

– لا شيء، يا سيدي.

– وفيودَرْ بافلفتش؟

– لقد ذهب في طلب الستائر والقرميد. إنه سيُقيم قواطع.

– الشيطان يعرف ما هذا!

– إنهم سيشغلون جميع الشقق، يا فيليب فيليبَفِتْش، ما عدا شقتكم. كان هناك اجتماع الآن، فانتخبوا لجنةً جديدة وطردوا القدماء.

– ما الذي يجري، آي-باي-باي ... فيت-فيت!

– أنا آتٍ يا سيدي. إنني سأسرع؛ فخاصرتي، لو تفضلت ونظرت، تؤثر عليَّ. اسمح لي أن ألحس حذاءك.

كانت قبعة البواب في الأسفل قد اختفت، وفي الفسحة المرمرية شاع دفء الأنابيب، فانعطفنا مرةً أخرى وإذا بنا في الطابق الثاني.

الفصل الثاني

ما من داعٍ أبدًا لتعلم القراءة ما دامت رائحة اللحم تصل إلى مسافة كيلومتر. لا سيما وأنك إذا كنت تقطن في موسكو، وفي رأسك أدنى قدر من المخ، فلا بد أن تتعلم القراءة شئت أم أبيت، بل ومن غير أية دورات، فليس بين ستين ألفًا من كلاب موسكو من لا يستطيع تجميع حروف كلمة «سُجُق»، إلا إذا كان كامل العته تمامًا.

بدأ شارك يتعلم بالألوان. فما إن بلغ الشهر الرابع من عمره حتى نشروا في موسكو إعلانات بالأخضر والأزرق تحمل حروفًا تعني تجارة اللحوم. ونكرر القول بأنه لا جدوى من هذا؛ لأن رائحة اللحم حاضرة بطبيعة الحال. لقد اختلطت عليه الأمور مرة وهو يسير بمحاذاة اللون الأزرق المثير، فتعطلت حاسة الشم لديه بفعل دخان بنزين المحرك، ودخل شارك، بدلًا من مخزن اللحم، إلى مخزن الأدوات الكهربائية التابع للأخوة غولبيزنير في شارع ميسنيتسكيا، وهناك، عند الإخوة ذاق طعم سلك مغلف، فكان أفظع من كرباج الحوذي. وينبغي اعتبار تلك اللحظة المشهودة بداية تثقيف شارك. وقتها بدأ شارك يفكر في الحال، وهو على الرصيف، بأن «الأزرق» لا يعني دائمًا «اللحم». وبفعل الألم الحارق ضغط ذيله بين ساقيه وعوى، متذكرًا أن على جميع مخازن اللحم خربشة ذهبية أو حمراء تبدأ من اليسار وتشبه الزحَّافات M.

وفيما بعد سارت الأمور بنجاحٍ أكبر؛ فقد حفظ حرف «ة» من «السمكة الرئيسية» في زاوية الشارع مخفايا، ثم حرف «ك» لأنه كان يسهل عليه أن يأتي كلمة «السمكة» من آخرها ما دام ثمة شرطي يقف عند أول الكلمة.

كانت مربعات القرميد الصغيرة التي تزدان بها الزوايا في موسكو تعني دائمًا وحتمًا «ج-ب-ن». وكان الحرف الذي يشبه حنفية السماور السوداء ويتقدم الكلمة، يشير إلى اسم الملك السابق تشيتشكِن، وإلى جبال الجبن الهولندي الأحمر، وإلى الباعة الوحوش

الذين لا يطيقون الكلاب، وإلى نشارة الخشب على الأرض وجبن باكتشين العفن والكريه الرائحة.

حين كانوا يعزفون على الهارمونيكا أنغامًا تفوق «عايدة الغالية» قليلًا، وتفوح رائحة السجق، فإن الأحرف الأولى على اليافطات البيضاء كانت تتجمع على نحوٍ مريح جدًّا لتشكل كلمة بذيـ ... «الأمر الذي كان يعني: «لا تتفوهوا بكلماتٍ بذيئة ولا تعطوا إكرامية.»

كانت المعارك تنشب هنا بالكرباج أحيانًا، ويضربون الناس بالقبضات على وجوههم، ولكن، للحقيقة. كان ذلك يحدث في حالاتٍ نادرة، إلا أنهم كانوا دائمًا يضربون الكلاب بالفوطات أو بالجزمات.

إذا كانت أفخاذ قديمة من لحم الخنزير المدخن تتدلى في الشبابيك. وكان ثمة ثمار اليوسفي ... عاو-عاو ... عا ... فتلك مواد غذائية، وإذا كانت زجاجات قاتمة فيها سائل رديء ... خا– إم-خم-ور-خمور ... الإخوة يليسييف سابقًا ...

هذا السيد المجهول الذي جر كلبًا إلى باب شقته الباذخة في الطابق الثاني، ضغط على زر الجرس، فرفع الكلب عينه حالًا ليرى لافتةً كبيرة سوداء، معلقة على جانب باب عريض ذي زجاج معشَّق زهري اللون، وعليها كتابة بحروفٍ ذهبية، وسرعان ما ركَّب الحروف الثلاثة الأولى «با، را، أو-برو»، ثم تلاها حرف تافه منفوخ معقوف، لم يفهم الكلب ماذا يعني، ففكر متعجبًا: «أيعقل أنه بروليتاري؟ إن ذلك مستحيل» — رفع أنفه عاليًا فتشمم معطفه الفرو ثانيةً وقرر واثقًا: «كلا، لا أثر لبروليتاريٍّ هنا، ما هي إلا كلمة علمية، ولكن الله أعلم ماذا تعني.»

انبثق من وراء الزجاج الزهري ضوءٌ فجائي بهيج زاد من إبراز اللافتة السوداء، ثم انفتح الباب على مصراعيه بكامل الهدوء، فظهرت أمام الكلب وسيده امرأة شابة جميلة ترتدي مئزرًا أبيض اللون، وعلى رأسها قطعة دانتيلا، غمرت الكلب نفحة دفء إلهي، وفاحت من تنورة المرأة رائحةً كالسوسن.

ففكر الكلب: «يا للروعة إما هكذا، أو لا.»

– تفضل يا سيد شارك — دعاه السيد ساخرًا، فتفضل شارك بكل احترامٍ وهو يهز ذيله.

كان المدخل الثري يغص بعددٍ هائل من الأشياء، وسرعان ما انطبعت في ذاكرته مرآة تتصل بالأرض تمامًا، وقد انعكست فيها فورًا صورة شارك آخر مُعذَّب ومُهلهل، وكذلك قرون وعلٍ رهيبة في الأعلى، وعدد لا يُحصى من معاطف الفرو وواقيات الأحذية، وظليلة مصباح ثمينة، وضوء، كهرباء تحت السقف.

– من أين جئت بهذا، يا فيليب فيليبَفِتْش؟ — تساءلت المرأة وهي تبتسم وتساعده على خلع معطفه الثقيل المصنوع من فراء ثعلب قاتم السواد يبعث بريقًا يميل إلى الزرقة — عجبًا! ما أردأه!

– إنك تتفوهين بهراء، أين الرداءة؟ — تساءل السيد بصوتٍ صارم متقطع. وحين خلع المعطف تبدَّى ببذلةٍ سوداء من جوخٍ إنكليزي، وعلى بطنه تتدلى سلسلة ذهبية تبعث أَلَقًا بهيجًا هادئًا.

– انتظِر، لا تدُرْ، فيت ... لا تدُرْ، أيها الأحمق الصغير، إحم! ... هذا ليس رديو ... توقف، يا للشيطان ... إحم! آ–ا. هذا حرْق، أيُّ وغدٍ حرقك؟ آ؟ قف بهدوء؟ ...

«طباخٌ مجرم، طباخ!» — نطقت عينا الكلب الشاكيتان وأطلق عواءً ضعيفًا.

– زينا — ناداها السيد آمرًا — خذيه إلى غرفة الكشف فورًا، وهاتي لي المريلة.

شرعت المرأة تُصَفِّر وتفرقع بأصابعها فتبعها الكلب بعد ترددٍ قصير، ووصلا معًا إلى ممرٍ ضيق باهت الإضاءة، فعبرا بابًا برَّاق الطلاء، وبلغا نهاية الممر، ثم انعطفا يسارًا فوجدا نفسيهما في وكرٍ مظلم أثارت رائحته الكريهة نفور الكلب فورًا، وبعدئذٍ انشق الظلام عن نهارٍ باهر، بل وانبثق الضياء ساطعًا شديد البياض في جميع الجهات.

– إي، كلا ... — شرع الكلب يعوي في خياله — عفوًا، لن أسلم نفسي! فهمت، فليأخذهم الشيطان مع سُجقِّهم. لقد استدرجوني إلى مصحةٍ للكلاب، وسيجبرونني الآن على تجرُّع زيت الخروع، ويقطِّعون خاصرتي كلها بالسكاكين، رغم أنه لا يجوز أن تُمس مسًّا!»

– إي، كلا، إلى أين؟ — صرخت تلك التي نوديت باسم زينا.

تملَّص الكلب وكوَّر جسمه ثم ضرب الباب فجأة بخاصرته السليمة ضربةً هزت الشقة كلها، وبعدئذٍ ارتد إلى الوراء ودار في مكانه مثل مغزال، فقلب على الأرض سطلًا أبيض اندلقت منه كتل قطنية. وأثناء دورانه كانت تدور معه الجدران المرصوفة بخزائن فيها أدوات لَّماعة، ويتقافز مئزر أبيض ووجه نسائي مشوَّه.

– إلى أين، أيها الشيطان الأشعث؟ — راحت تصرخ زينا.

– يا للعين!

«... أين السُّلَّم الاحتياطي عندهم يا ترى؟ ... فكَّر الكلب، ثم اندفع كتلةً واحدة وصدم الزجاج عشوائيًّا، ظنًّا منه أنه الباب الثاني. تطايرت سحابة من الشظايا مصحوبة بصوت انكسار ورنين، وسقط وعاءٌ زجاجي كروي فانسكب منه سائل نتن أحمر صبغ الأرض كلها في الحال وفاحت رائحته. وهنا انفتح الباب الحقيقي.

– توقف، أيها البهيمة! — صرخ السيد وهو يقفز في مريلته التي لم يلبس بعد إلا أحد كُميها، وأمسك الكلب من ساقيه. زينا، أمسكي هذا النذل من تلابيبه!

– يا ... يا ناس، يا لهذا الكلب!

اتسعت فتحة الباب واقتحمها شخصٌ آخر من الذكور أيضًا ويرتدي مريلة. أخذ يدوس الزجاج المكسَّر دون أن يندفع صوت الكلب، بل توجه إلى الخزانة وفتحها فامتلأت الحجرة برائحةٍ حلوة منفِّرة ، ولما انثنى الشخص ببطنه فوق الكلب تلقَّاه هذا بعضة مشتاق فوق ربطة الحذاء. ندَّت عن الشخص أَنَّةٌ ولكنه لم يتوانَ؛ فقد سيطر السائل المثير للغثيان على تنفُّس الكلب ودار كل شيء في رأسه، ثم ارتخت أرجله ورحل إلى مكانٍ مجهول بخطًا عوجاء مواربة، «شكرًا، بالطبع — فكَّر الكلب وهو يحلم ويسقط مباشرة على الزجاج الحاد — وداعًا يا موسكو! فلن أرى بعد الآن تشيتشكِن والبروليتاريين وسجق كراكَف. إنني راحلٌ إلى الجنة جزاءً لي على طول صبري الكلبي.

«أخوتي، أيها السفاحون، لماذا تعاقبونني؟»

وهنا انقلب على جنبه وهمد نهائيًّا ...

عندما بُعث من جديد كان رأسه يدور قليلًا، وشيء من الشعور بالغثيان في بطنه. أما خاصرته فكأنها لم تكن. لقد كانت صامتة صمتًا حلوًّا. فتح الكلب عينه اليمنى الأسيانة ورأى عبر طرفها أنه مشدود بأربطة الضماد شدًّا قويًّا حول بطنه وخاصرتيه، ففكر بضبابية»، ومع ذلك؛ فقد فعلها أولاد الكلب، ولكن بمهارة، للإنصاف.»

– «من إشبيليا إلى غرناطة ... في غبش الليالي الهادئ» — انطلق بالغناء فوقه صوتٌ شاردٌ ورديء.

تعجَّب الكلب، ففتح كلتا عينيه على سعتهما ورأى على بُعد خطوتين منه قدم رجلٍ على مقعدٍ أبيض. كانت فردة البنطلون والسروال الذي تحتها مثنيين. وكان اللحم الأصفر العاري ملطخًا بالدم اليابس واليود.

«أيها الأولياء! — فكر الكلب — يبدو أنني أنا الذي عضضته. هذه فعلتي أنا، آخ، كم سيجلدونني!»

– «تترامى أغنيات العاشقين: وصليل السيف أيضًا!»

لماذا أيها الشحاذ عضضتَ الدكتور؟ آ؟ لماذا كسرت الزجاج؟ آ؟

– عو-و-و — هرَّ الكلب شاكيًا.

– حسنًا، ابقَ مستلقيًا ما دمت قد صحوت، أيها المعتوه.

– كيف تيسَّر لكم، يا فيليب فيليبَفِتْش، استدراج هذا الكلب العصبي؟

– سأل صوتٌ ذكوري طيب، وسقط السروال التريكو الداخلي إلى الأسفل، ثم فاحت رائحة تبغ، ورنَّت في الخزانة زجاجات صغيرة.

– بالملاطفة، أيها السيد. تلك هي الطريقة الوحيدة الممكنة في التعامل مع الكائن الحي، فمن المستحيل أن تفعل شيئًا بواسطة الإرهاب مع الحيوان أيًّا كانت درجة التطور التي بلغها. ذلك ما أكدته وأؤكده وسأؤكده، فَهُمْ عبثًا يظنون أن الإرهاب سوف يساعدهم. كلا، يا سيدي، لن يساعدهم، أيًّا كان نوعه، سواء في ذلك الإرهابُ الأبيض أو الأحمر أو حتى البني! فالإرهاب يصيب الجهاز العصبي بشللٍ كامل، يا زينا! لقد اشتريت لهذا الوغد بقيمة روبل وأربعين كوبيكًا من سجق كراكوف، حاولي أن تطعميه كي يكف عن التقيؤ.

سمع رنين شظايا الزجاج أثناء الكناسة، وأجاب صوتٌ نسائي قائلًا بدلال: سجق كراكوف! كان يجب، يا سيدي، أن تشتري له نفايات ببضعة قروش من دكان اللحم، فأنا الأجدر بأكل سجق كراكوف.

– جرِّبي فقط، وسأريك الأكل! إنه سمٌّ لبطن الإنسان. أنت فتاة ناضجة، إلا أنك مثل الطفل تجرِّين إلى فمك ما تصادفين.

إياكِ! وأحذرك بأن أيًّا منا، أنا أو الدكتور بورمنتال، لن يهتم بك إذا ما بدأ المغص في بطنك ... «كل من يقول بأن هناك من تضاهيك ...»

إذ ذاك راحت رناتٌ متقطعة رقيقة تتناثر في الشقة كلها، بينما كانت أصواتٌ بعيدة تترامى من المدخل، رن جرس الهاتف، فاختفت زينا.

رمى فيليب فيليبَفِتْش لُفافته في السطل وزرَّر مريلته، ثم شذب شاربيه الكثَّين أمام مرآةٍ في الجدار ونادى الكلب: فيت-فيت. لا بأس، لا بأس. هيا إلى العلاج.

نهض الكلب على أرجله الرخوة فتمايل وارتجف، إلا أنه سرعان ما أصلح وضعه ومضى يتبع المريلة الخفاقة على فيليب فيليبَفِتْش. اجتاز الكلب الممر الضيق مرةً أخرى، ولكنه شاهده الآن مُضاء من الأعلى بالكهرباء. وعندما انفتح الباب اللمَّاع دخل مع فيليب فيليبَفِتْش إلى مكتبه الذي بهر عينيه بنظافته. لقد كان يتوهج كله بالضوء قبل كل شيء؛ إذ كان النور مشتعلًا تحت السقف المزين وعلى الطاولة والجدار وفي زجاج الخزائن. كان الضوء ينسكب على عددٍ كبير من الأشياء التي تبيَّن أن أمتعها بومةٌ ضخمة واقفة على غصنٍ في الجدار.

– استلقِ — أمره فيليب فيليبَفِتْش.

انفتح الباب المزخرف قبالته ودخل الرجل المعضوض الذي اتضح الآن في الضوء أنه شابٌّ جميل جدًّا وله لحية صغيرة محدَّبة، فسلَّم ورقةً وقال: الزائر السابق …

ثم اختفى حالًا دونما جلبة. أما فيليب فيليبَفِتْش ففتح مريلته وجلس وراء مكتب ضخم، فبدا في الحال فائق الأهمية والاعتبار.

«كلا. إن هذا ليس مشفًى. لقد وقعت في مكانٍ آخر — فكر الكلب محتارًا، واستلقى على رسوم السجادة قرب أريكة جلدية ثقيلة — أما هذه البومة الكبيرة فسوف نتفاهم بشأنها …»

انفتح الباب بلطف، ودخل رجلٌ أثار في الكلب من الذهول ما جعله ينبح ولكن بحياءٍ كبير …

– اسكت! أوه، يصعب عليَّ أن أعرفك، يا حبوب.

انحنى الداخل لفيليب فيليبَفِتْش بكثيرٍ من الاحترام والحرج.

– خي-خي! إنك ساحرٌ وعراف، يا بروفيسور — نطق بارتباك.

– اخلع بنطلونك، يا حبوب — أمره فيليب فيليبَفِتْش ونهض.

«يا عيسى الإله — فكَّر الكلب — يا له من نموذج!»

كان الشعر على رأس هذا النموذج أخضر تمامًا، بينما شعر قذاله يشف عن لونٍ تبغيٍّ صدئ. وكانت التجاعيد تنتشر في وجه النموذج. غير أن لون وجهه كان زهري اللون مثل وجه طفل. كانت رجله اليسرى لا تنثني فيضطر لجرِّها عبر السجادة، ولكن رجله اليمنى كانت تنط كدُمية أطفال. وعلى صدر جاكيته الرائع كان يتدلى حجرٌ كريم يشبه العين.

أثار المنظر اهتمام الكلب فاختفى إحساسه بالتقيؤ.

– تياو، تياو! — أصدر الكلب نباحًا ضعيفًا.

– أسكت! كيف نومك، يا حبُّوب؟

– خي-خي، هل نحن وحدنا، يا بروفسور؟ شيء لا يوصف — بدأ الزائر بخجل — بارول دونيز[١] — لا مثيل لذلك منذ خمس وعشرين سنة — ومد الشخص يده إلى زر بنطلونه — هل تصدق يا بروفيسور أن الفتيات يجئنني أسرابًا كل ليلة. إنني بالغ الإعجاب، فأنت ساحر.

[١] فرنسية، معناها: كلمة شرف، الناشر.

– هم — هممهم فيليب فيليبَفِتْش باهتمامٍ وهو يحدق في بؤبؤَي الضيف.

تمكن الزائر أخيرًا من فك الزر وخلع بنطلونه المقلَّم. ظهر تحت البنطلون سروال طويل لم يرَ مثله من قبل أبدًا. كان لونه قمحيًّا غامقًا وقد طُرزت عليه بالحرير قطط سوداء، وتنبعث منه روائح عطور.

لم يحتمل الكلب منظر القطط فأطلق نباحًا، جعل الشخص ينط.

– آي!

– سأجلدك! لا تخف. إنه لا يعض.

«أنا لا أعض؟» — تعجَّب الكلب.

أسقط الزائر من جيب بنطلونه على السجادة ظرفًا صغيرًا عليه صورة حسناء مسبلة الشعر، نط الشخص، ثم انحنى؛ فالتقطه، وتضرَّج وجهه بالحمرة.

– لكن عليك أن تنتبه — قال فيليب فيليبَفِتْش محذرًا، متجهمًا ومهددًا بإصبعه — ومع ذلك إياك والإفراط!

– إنني لا أفرط — غمغم الشخص مرتبكًا، وهو يتابع خلع ثيابه — فأنا، يا عزيزي البروفسور، من قبيل التجربة لا غير.

– وماذا؟ ما هي النتائج؟ — سأله فيليب فيليبَفِتْش بصرامة.

نفض الشخص يده بنشوة.

– لا مثيل لذلك منذ خمس وعشرين سنة، أقسم بالله يا بروفيسور؛ فقد كانت المرة الأخيرة في سنة ١٨٩٩م بباريس في ريو دي لابا.

– ولماذا اخضرَّ شعرك؟

انقبض وجه الزائر.

– الصبغة اللعينة! لا تستطيع يا بروفيسور أن تتصور ماذا وضع لي هؤلاء، العطر بدلًا من الصبغة، انظر فقط — كان الشخص يغمغم وهو يبحث بعينيه عن المرآة — يجب أن يُصفعوا! — أضاف محتقنًا بالغضب — فماذا أعمل الآن يا بروفيسور؟ تساءل بنبرةٍ باكية.

– همْ، احلق على الصفر.

– لكن يا بروفيسور — هتف الزائر شاكيًا — سينمو شعري الأشيب مرة أخرى، وفوق ذلك سيتعذَّر عليَّ الذهاب إلى العمل، وهذا هو ثالث يوم لا أذهب فيه. آخ، يا بروفيسور، ليتك تكتشف طرقًا لإحياء شباب الشعر أيضًا!

– ليس فورًا، ليس فورًا يا عزيزي — غمغم فيليب فيلييبَفِتْش.

انحنى وشرع يتفحص بعينيه البراقتين بطن المريض العاري: وماذا؟ رائع، كل شيء على خير ما يرام، حتى إنني، إذا ما توخينا الحقيقة، لم أتوقع مثل هذه النتيجة. الصحة عربون السعادة ... ارتدِ ثيابك يا عزيزي!

– «مغرمٌ أنا بتلك التي هي أحلى من الجميع!» — أنشَدَ الزائر بصوتٍ هادر كمقلاة، وراح يرتدي ثيابه مبتهجًا، وبينما كان يرتب هندامه وينط ناشرًا رائحة العطور، عدَّ لفيليب فيلييبَفِتْش رزمةً من الأوراق المالية البيضاء ، وطفق يشد على كلتا يديه بلطف.

– بوسعك أن تغيب عني أسبوعين — قال فيليب فيلييبَفِتْش — ولكن، مع ذلك، أرجوك، كن حذرًا.

– بروفيسور! — هتف من وراء الباب بصوتٍ تغمره النشوة — كن مطمئنًّا تمامًا — ثم ضحك بخبثٍ واختفى.

تطاير في الشقة رنينٌ سريع، ثم انفتح الباب اللمَّاع ودخل المعضوض فناول فيليب فيلييبَفِتْش ورقةً وأعلن: الإشارة إلى العمر غير صحيحة، لعله ٥٤–٥٥. دقات القلب ضعيفة قليلًا. ثم انصرف وأعقبته سيدة باذخة ترتدي قبعةً شديدة الميل إلى الجانب وعُقدًا براقًا في جيدها الذابل المجعد. كانت كتلتان سوداوان رهيبتان تتدليان تحت عينيها، بينما كانت وجنتاها حمراوين كوجنتَي دمية. وكانت شديدة الاضطراب.

– سيدتي! كم عمرك؟ — سألها فيليب فيلييبَفِتْش بنبرةٍ مفرطة الصرامة.

خافت السيدة، بل وشحب لونها تحت طبقة الحمرة.

– أقسم لك يا بروفيسور، ليتك تعرف مصيبتي! ...

– عمرك كم يا سيدة؟ — كرر فيليب فيلييبَفِتْش بمزيدٍ من الصرامة.

– أقسم بشرفي ... طيب، خمس وأربعون ...

– يا سيدة! — زمجر فيليب فيلييبَفِتْش — المرضى ينتظرونني، لا تعطليني، من فضلك، فلستِ وحدك!

ارتفع صدر السيدة على نحوٍ عاصف.

– سأقول لك وحدك، بوصفك نجمًا في العلم، ولكنني أقسم ... يا للهول! ...

– كم عمرك؟ — سألها فيليب فيلييبَفِتْش بغضبٍ وجئير، فلمعت نظارتاه.

– واحد وخمسون! — أجابت السيدة متشنجة من الخوف.

– اخلعي سروالك يا سيدة — نطق فيليب فيلييبَفِتْش بارتياحٍ وأشار إلى سريرٍ أبيض عالٍ في الزاوية.

– أقسم يا بروفيسور — غمغمت السيدة وهي تفك مشابك حزام على خصرها بأصابعٍ ترتجف — هذا الـ موريتس ... إنني أعترف لك كما في الكنيسة ...

– «من إشبيليا إلى غرناطة ...» — أنشد فيليب فيليبَفِتْش بشرودٍ، وضغط على مفتاح صنبور في المغسلة المرمرية، فعلا صوت الماء.

– قسمًا بالله! — راحت السيدة تقول وبقعٌ حيةٌ تنضح على وجنيتها من تحت لطخات الزينة — أعرف أن هذا آخر عشقٍ لي. يا له من سافل! آه أيها البروفيسور! إنه مقامرٌ غشاش، وموسكو كلها تعرف ذلك. وهو لا يستطيع أن يفوت أية خيَّاطة نسائية سافلة. إنه فتِيٌّ على نحوٍ شيطاني — كانت السيدة تغمغم وهي تخلع من تحت تنورتها المنشَّاة قطعة دانتيلا مجعدة.

غامت الدنيا تمامًا في عينَي الكلب واختلطت الأشياء في رأسه.

«فلتذهبوا إلى الشيطان — فكَّر بضبابيةٍ وقد توسَّد يديه وغفا من العار — بل ولن أحاول أن أفهم ما هذا الشيء؛ لأنني في جميع الأحوال لن أفهم.»

أيقظه رنين الجرس فرأى فيليب فيليبَفِتْش وقد ألقى بأنابيب لماعة في وعاء.

كانت السيدة المبقعة تضغط على صدرها بيديها وتنظر نظرة رجاء إلى فيليب فيليبَفِتْش وقد قطب حاجبيه وجلس خلف الطاولة يكتب شيئًا ما.

– سأضع لك حالِبَي قردة يا سيدتي — أعلن ثم أنظر إليها بصرامة.

– آه، يا بروفيسور، حالِبا قردةٍ حقًّا؟

– نعم — أجاب فيليب فيليبَفِتْش بإصرار.

– متى موعد العملية؟ كان الشحوب يكلل السيدة وهي تتساءل بصوتٍ ضعيف.

– «من إشبيليا إلى غرناطة ...» حم ... يوم الإثنين، تعالي إلى العيادة منذ الصباح، سيهيئك مساعدي للعملية.

– آه، لا أريد المجيء إلى العيادة، ألا يمكن إجراؤها عندك، يا بروفيسور؟

– إنني لا أجري عمليات عندي إلا في الحالات القصوى، فذلك مكلفٌ جدًّا؛ أي خمسمائة.

– موافقة، يا بروفيسور!

علا خرير الماء من جديد، وخفقت القبعة ذات الريش، ثم ظهر رأس أصلع مثل صحن، وعانق هذا الرأس فيليب فيليبَفِتْش. كان الكلب نعسًا بعد أن تجاوز حالة التقيؤ، وأخذ يتمتع بالدفء وبخمود الألم في خاصرته، حتى إنه أخذه الشخير وقُدِّرَ له أن يرى في نومه جزءًا من حلم طيب؛ فقد خُيل له أنه انتزع قبضة ريش من ذيل البومة ... ثم انطلق فوق رأسه نباحٌ متقطعٌ مذعور.

– إنني واسع الشهرة في موسكو يا بروفيسور، فماذا عليَّ أن أفعل؟

– أيها السادة — صرخ فيليب فيليبَفِتْش مستنكرًا — لا يجوز هكذا! يجب أن تتمالكوا أنفسكم، كم عمرها؟

– أربعة عشر يا بروفيسور ... أنت تعرف أن الفضيحة ستهلكني. وسوف أُكلَّف بمهمةٍ خارجية خلال أيام.

– لكنني لست محاميًا، يا حبُّوب ... انتظر سنتين ثم تزوجها.

– إنني متزوج يا بروفيسور.

– آه أيها السادة، أيها السادة!

كان الباب ينفتح فيتعاقب الأشخاص وترنُّ الأدوات في الخزانة، بينما فيليب فيليبَفِتْش يعمل بلا توقف.

«شقةٌ فاجرة — فكَّر الكلب — ولكن ما أحسنها! فلأي شيطانٍ يحتاجني؟ أحقًّا سيدعني أقيم فيها؟ يا له من غريب الأطوار! كان في وسعه بطرفة عين أن يحصل على كلبٍ رائع يثير الدهشة! ولكن، ربما أنا جميلٌ أيضًا. يبدو أنه حظي السعيد! أما البومة فسخيفة ... وقحة.»

استيقظ الكلب نهائيًّا في آخر المساء عندما انقطع رنين الجرس، في اللحظة نفسها التي اجتاز البابَ زوَّارٌ متميزون، كان عددهم أربعة دخلوا معًا، جميعهم في سن الشباب، وجميعهم يرتدون ثيابًا متواضعة للغاية.

«ماذا يريد هؤلاء؟» — فكر الكلب مستغربًا، استقبل فيليب فيليبَفِتْش هؤلاء الضيوف بامتعاضٍ يزيد كثيرًا عما قبل؛ فقد وقف عند المكتب ونظر إلى الداخلين نظرة قائد إلى الأعداء، كان منخرَا أنفه الباشقي يعلوان وينخفضان، بينما تجمَّع الداخلون فوق السجادة.

– نحن جئناك يا بروفيسور — بدأ الحديثَ من بينهم ذلك الذي كانت تعلو رأسَه كومة شعر مجعد أسود بالغ الكثافة ارتفاعها ربع أرشين[٢] — وإليك القضية ...

– عبثًا أيها السادة تتجوَّلُون دون واقيات أحذية في مثل هذا الطقس — قاطعه فيليب فيليبَفِتْش مؤنبًا، أولًا، ستصابون بالزكام، وثانيًا. لقد وسختم لي السجادات، وكلها فارسية.

صمت ذو الكومة، وحدَّق الأربعة بفيليب فيليبَفِتْش مشدوهين. استمر الصمت بضع ثون، ولم يقطعه إلا نقر أصابع فيليب فيليبَفِتْش على صحنٍ خشبي مزخرف فوق الطاولة.

---

[٢] الأرشين وحدة قياس؛ ٧١,١٢سم. (المترجم)

– أولًا، نحن لسنا سادة — نطق أخيرًا أكثر الأربعة يفاعًا، وكان شبيهًا بالدُّرَّاقة.

– أولًا — قاطعه أيضًا فيليب فيليبَفِتْش — أرجُلٌ أنت أم امرأة؟

صمت الأربعة مرة أخرى، وفغروا أفواههم. وفي هذه المرة صحا الأول ذو الكومة.

– ما الفرق، يا رفيق؟ — سأل بتكبر.

– إنني امرأة — اعترف الفتى الدُّرَّاقي ذو السترة الجلدية، واحمر بقوة، ثم ولسببٍ ما، احمر أحد القادمين احمرارًا بالغًا. وكان أشقر يعتمر قبعة فرو عالية.

– في هذه الحالة تستطيعين أن تَبقَي في قبعتك. أما أنت يا سيدي الكريم، فأرجوك أن تخلع غطاء رأسك — قال فيليب فيليبَفِتْش بوقار.

– لست سيدك الكريم — اعترض الأشقر بحدةٍ وهو يخلع قبعته العالية.

– نحن جئناك — بدأ الأسود ذو الكومة من جديد.

– قبل كل شيء، من هؤلاء الـ «نحن»؟

– نحن الإدارة الجديدة لعمارتكم — رد الأسود بغضبٍ مكبوت — أنا شفوندر، وهي فيازِمْسكَيا، وهما الرفيقان بِستروخِن وجاروفكِن. هؤلاء نحن ...

– أنتم الذين أسكنوكم في شقة فيودَرْ بافلفيتش شابْلِن؟

– نحن — أجاب شفوندر.

– يا إلهي. لقد ضاعت عمارة كالابوخوفسكي! — هتف فيليب فيليبَفِتْش بقنوطٍ وبسط ذراعيه.

– ما لك، يا بروفيسور، أتضحك؟ —– انزعج شفوندر.

– ما لي وللضحك؟! إنني في منتهى اليأس — صرخ فيليب فيليبفتش — فماذا سيكون الآن مصير التدفئة المركزية؟

– أنت تسخر، يا بروفيسور بريوبراجينسكي؟

– ما القضية التي جئتموني من أجلها؟ تكلموا بأسرع ما يمكن، إنني الآن ذاهبٌ لأتغدى.

– نحن إدارة المسكن — بدأ شفوندر بحقد — جئناك بعد الاجتماع العام لسكان مسكننا الذي انطرح عليه موضوع تضييق شقق المسكن ...[٣]

[٣] لاحظ تكرار كلمة «مسكن» ثلاث مرات في جواب شفوندر، وكذلك الركاكة الأسلوبية في تعابيره التي يسخر منها البروفيسور، وقد حرصنا على الدقة في نقل هذه التفاصيل لما لها من قيمةٍ دلالية هامة. (المترجم)

– من انطرح على من؟ — صرخ فيليب فيليبَفِتْش — حاوِل أن تعرض أفكارك على نحوٍ أوضح.

– انطرحت قضية التضييق.

– يكفي! لقد فهمت! هل تعرفون أن القرار الصادر في ١٢ أغسطس الجاري يقضي باستثناء شقتي من جميع أنواع التضييق والتقسيم؟

– معلوم — أجاب شفوندر — ولكن الاجتماع العام بعد أن درس قضيتك توصل إلى استنتاجٍ مفاده أنك على وجه العموم والإجمال تشغل مساحة فائقة الاتساع، فأنت وحدك تعيش في سبع غرف.

– إنني وحدي أعيش وأعمل في سبع غرف — أجاب فيليب فيليبَفِتْش — وأرغب بامتلاك غرفة ثامنة؛ فهي ضرورية لي كي تكون مكتبة.

تخدَّر الأربعة.

– ثامنة! إ-خي-خي — قال الأشقر المجرد من غطاء الرأس — أما شيء رائع.

– إنه شيء لا يُوصف! — هتف الفتى الذي تبيَّن أنه امرأة.

– إن عندي غرفة استقبال — انتبهوا — وهي أيضًا مكتبة؛ ثم غرفة طعام ومكتب ٣؛ غرفة كشف ٤؛ غرفة عمليات ٥؛ غرفة نومي ٦؛ وغرفة الخدم ٧. وبالجملة، لا يكفي … وعلى كل حال، هذا ليس هامًّا، فشقتي واسعة، وهذه نهاية الحديث، هل أستطيع الذهاب لأتناول الغداء؟

– عفوًا — قال الرابع الشبيه بخنفساء قوية.

– عفوًا — قاطعه شفوندر — نحن جئنا لنتكلم بشأن غرفتَي الطعام والكشف تحديدًا. إن الاجتماع العام يرجوك أن تتخلى، طوعًا وطبقًا لنظام العمل، عن غرفة الطعام، فليس عند أيٍّ كان غرفة طعام في موسكو.

– حتى عند آيسيدورا دونكان![4] صرخت المرأة بصوتٍ رنان.

[4] **آيسيدورا دونكان** (١٨٧٨–١٩٢٧م) راقصة أمريكية مشهورة، واسعة الثقافة، جابت أوروبا كلها والتقت معظم مشاهيرها الذين عاصروها. ثم تزوجت الشاعر الروسي الشهير **سيرغي يسينن** (١٨٩٥–١٩٢٥م) وعاشت معه في شقةٍ فاخرة من الشارع الذي تدور فيه أحداث هذه القصة. وقد تركت **دونكان**، بعد مقتلها بحادث سيارة في فرنسا، كتابًا بعنوان «**حياتي**» نشرت ترجمته «**دار اليقظة العربية**» بدمشق أواخر الخمسينيات مُغفِلة ذكر اسم المترجم وتاريخ النشر. (المترجم)

أصاب فيليب فيليبَفِتْش ما جعل وجهه ينضح بحمرةٍ شفافة، ولكنه لم ينبس ببنت شفة، وظل منتظرًا ما سيأتي بعد.

– وبخصوص غرفة الكشف أيضًا — تابع شفوندر — فيمكن دمج غرفة الكشف مع المكتب على نحوٍ رائع.

– أوهو — نطق فيليب فيليبَفِتْش بصوتٍ غريب — وأين عليَّ أن أتناول الطعام؟

– في غرفة النوم — أجاب الأربعة بصوتٍ واحد.

اكتست حمرة فيليب فيليبَفِتْش بظلالٍ رمادية قليلًا.

– أن أتناول الطعام في غرفة النوم — بدأ يتكلم بصوتٍ مخنوق — وأقرأ في غرفة الكشف، وأرتدي ثيابي في غرفة الاستقبال، وأجري العمليات في غرفة الخدم، وأستقبل المرضى في غرفة الطعام؟ من الممكن جدًّا أن ذلك ما تفعله آيسيدورا دونكان. لعلها تتغدى في المكتب، وتذبح الأرانب المنزلية في الحمام. ربما ... ولكنني لست آيسيدورا دونكان! — زأر فجاة وانقلبت حمرته صفرة — سأتغدَّى في غرفة الطعام، وأقوم بالجراحة في غرفة العمليات! انقلوا ذلك إلى الاجتماع العام، وأتوجه إليكم بألطف الرجاء أن تعودوا إلى أعمالكم وتتيحوا لي إمكانية تناول الغداء في المكان الذي يتناول الغداء فيه جميع الأسوياء، أي في غرفة الطعام، وليس في فسحة المدخل أو في غرفة الأطفال.

– عندئذٍ، يا بروفيسور — قال شفوندر المضطرب — فإننا، نظرًا لرفضك العنيد، سوف نقدم شكوى ضدك إلى الجهات العليا.

–آها — نطق فيليب فيليبَفِتْش — هكذا؟ — واتَّخذ صوته نغمة احترام مريبة — أرجوكم أن تتريثوا دقيقةً واحدة.

«يا له من رجل — فكر الكلب بإعجاب — إنه يشبهني تمامًا، أووخ، سيكيل لهم الآن، أوخ، سيكيل، لا أعرف بعدُ بأية طريقة، ولكنه سيكيل لهم ضربة ... اضربهم! ليتني أعض الآن هذا الطويل الساقين من العِرق الذي بين ركبتيه وأعلى الجزمة ... ر–ر–ر ...»

قرع فيليب فيليبَفِتْش جرس الهاتف، ثم رفع السماعة وقال فيها: من فضلك ... نعم ... أشكرك ... أعطني بيوتر ألكساندرفتش من فضلك. أنا البروفيسور بريوبراجينسكي. بيوتر ألكساندرفيتش؟ سعيد جدًّا أنني وجدتك. أشكرك، إنني معافًى. بيوتر ألكساندرفيتش، إن عمليتك قد أُلغيت. ماذا؟ أُلغيت كليًّا. شأنها شأن باقي العمليات الأخرى. إليك السبب: إنني سأتوقف عن العمل في موسكو وفي روسيا بالجملة ... فقد دخل إلى عندي الآن أربعة، بينهم امرأة ترتدي ثياب رجل، واثنان منهم مسلحان بمسدسات، ومارسوا عليَّ الإرهاب في شقتي بهدف سلخ جزء منها.

– عفوًا، يا بروفيسور — بدأ شفوندر وقد تبدل لون وجهه.

– عفوًا ... لا يمكنني أن أكرر كل ما قالوه. فلست من عشاق الهراء، يكفي أن أقول إنهم عرضوا عليَّ التخلي عن غرفة الكشف، وبكلماتٍ أخرى؛ فقد وضعوني أمام ضرورة إجراء عملية لك في المكان الذي كنت حتى الآن أذبح فيه الأرانب المنزلية. وفي مثل هذه الظروف لا أكون عاجزًا عن العمل وحسب، بل ولا أملك الحق في أن أعمل؛ ولذلك سأنهي نشاطي، فأقفل شقتي وأسافر إلى سوطشي.[٥] بوسعي أن أسلم المفاتيح لشفوندر. فليقم هو بالعمليات.

تجمَّد الأربعة. كان الثلج يذوب على جزماتهم.

– ما العمل ... ذلك كريهٌ جدًّا بالنسبة لي أيضًا ... كيف؟ آ، كلا، لن أوافق بعد الآن على ذلك. لقد نفد صبري، هذه ثاني حادثة منذ شهر أغسطس. كيف؟ هم ... كيفما شاء. على الأقل، ولكن بشرطٍ واحد هو أن تكون ورقة من النوع الذي لا يستطيع بوجودها لا شفوندر ولا أيٌّ غيره حتى ولو مجرد الاقتراب من باب شقتي، ورقةٌ حاسمة، فعلية، حقيقية! ضمانة. على ألا يذكر حتى اسمي. طبعًا. لقد مت بالنسبة لهم، نعم، نعم، من فضلك. من؟ آها ... لكن تلك قضيةٌ أخرى، آها ... حسنًا. الآن سأعطيه السماعة. من لطفك — توجَّه فيليب فيليبَفِتْش إلى شفوندر بصوت أفعى — سيتكلمون معك الآن.

– اسمح لي يا بروفيسور — قال شفوندر بانفعالٍ تارة وبانطفاءٍ تارة أخرى — لقد حرَّفت كلامنا.

– أرجو ألا تستعمل مثل هذه التعابير.

تناول شفوندر السماعة بارتباكٍ وقال: إنني أستمع. نعم ... رئيس لجنة السكن ... لقد طبَّقنا التعليمات ... ذلك هو الوضع عند البروفيسور، وهو وضعٌ استثنائي تمامًا ... إننا نعرف أعماله ... لقد أردنا أن نُبقي له خمس غرف كاملة ... لكن، حسنًا ... ما دام الأمر كذلك ... حسنًا ...

علَّق السماعة واستدار وقد احمَرَّ تمامًا.

«كيف أهانهم! يا له من رجل! — فكر الكلب بإعجاب — هل ترى يعرف كلمة سحرية ما؟ بوسعك الآن أن تضربني، لك ما تشاء، إلا أنني لن أخرج من هنا.»

فتح الثلاثة أفواههم وراحوا ينظرون إلى المُهان شفوندر.

[٥] مدينة اصطياف شهيرة تقع على البحر الأسود. (المترجم)

– يا للعار! نطق هذا بوجل.

– لو كان ثمة الآن جلسة نقاش — بدأت المرأة تتكلم مضطربة ومشتعلة بالاحمرار — لكنتُ أثبتُّ لبيوتر ألكساندرفتش …

– آسف، ألست تريدين فتح هذا النقاش الآن حالًا؟ — سألها فيليب فيليبَفِتْش باحترام.

اتقدت عينا المرأة.

– إنني أفهم سخريتك، يا بروفيسور، سوف نخرج الآن … ولكن أنا، بوصفي مدير القسم الثقافي للعمارة …

– م-دي-رة — صوَّبها فيليب فيليبَفِتْش.

– أريد أن أعرض عليك — وهنا أخرجت المرأة من عبِّها بضع مجلات ملونة ومبللة بالثلج — شراء بضع مجلات لصالح أطفال ألمانيا، بنصف روبل للواحدة.

– كلا، لن أشتري — أجاب فيليب فيليبَفِتْش بإيجازٍ بعد أن مال بنظره إلى المجلات.

ارتسم على الوجوه استغرابٌ كامل. أما المرأة فقد كللتها في الحال حمرةٌ قانية.

– ولماذا ترفض؟

– لا أريد؟

– ألا تشفق على أطفال ألمانيا؟

– لا مبالٍ بهم.

– تبخل بنصف روبل؟

– لا.

– لماذا إذن؟

– لا أريد.

صمتوا.

– هل تعرف يا بروفيسور — تكلمت الفتاة بعد أن تنهدت بصعوبة — لو لم تكن نجمًا أوروبيًّا، ولو لم يدافع عنك على أنكر وجهٍ (شدَّها الأشقر من طرف سترتها ولكنها انتفضت) أناسٌ لا أشك في أننا سنكشف هويتهم، لتوجَّب أن تُعتقل.

– لأي شيء؟ — سألها فيليب فيليبَفِتْش بفضول.

– أنت تكره البروليتاريا! — قالت المرأة بحرارة.

– نعم، أنا لا أحب البروليتاريا — وافق فيليب فيليبفش بأسًى وضغط زرًّا، فَعلا رنينه في مكانٍ ما وانفتح الباب على الممر.

– زينا! — صرخ فيليب — هاتي الغداء. أتسمحون يا سادة؟ — خرج الأربعة من الغرفة صامتين، واجتازوا غرفة الاستقبال صامتين، وفسحة المدخل صامتين، إلى أن سُمِع إغلاق الباب الرئيسي خلفهم بثقلٍ ورنين.

نهض الكلب على رجليه الخلفيتين وأدَّى لفيليب فيليبَفِتْش صلاةً ما.

الفصل الثالث

كانت شرائح رقيقة من سمك السلمون والحنكليس المخلل مصفوفة على أطباقٍ مزخرفة بألوانٍ بهيجة وكنار عريض أسود. وعلى خشبةٍ ثقيلة كانت قطعة جبن مندَّاة، بينما كان الكافيار في وعاءٍ فضي مفروش بالثلج. وكان بين الصحون عدد من الأقداح الرقيقة وثلاثة أباريق كريستالية مملوءة بفودكا مختلفة الألوان. كانت هذه الأشياء كلها موجودة على طاولةٍ صغيرة من المرمر متصلة على نحوٍ جميل مع خزانة ضخمة للأواني مصنوعة من خشب البلوط المحفور، تنبثق منها شعاعات ضوء زجاجي وفضي، وفي وسط الغرفة طاولة ثقيلة مثل نعش، مكللة بغطاء أبيض، وعليها أدوات طعام لشخصين وفوطات مطوية على شكل غطاء الرأس البابوي، وثلاث زجاجات قاتمة.

جاءت زينا بطبقٍ فضي مغطى وفيه شيء يغلي. كانت تنبعث من الطبق رائحة جعلت فم الكلب يمتلئ في الحال بلعابٍ سيال. «جنائن سميراميس» — فكَّر، ثم ضرب الأرض الخشبية بذيله، كأنما بعصًا.

– إلى هنا — أمر فيليب فيليبَفِتْش بوحشية — وأتوسل إليك يا دكتور بورمنتال أن تدع الكافيار بسلام. وإذا شئت أن تطيع نصيحة الخير فصُبَّ لي فودكا روسية عادية وليس إنكليزية.

هز الجميل المعضوض كتفيه العريضتين — ولم يكن الآن في مريلته البيضاء، بل في بدلةٍ سوداء لائقة — ثم ابتسم باحترامٍ وصبَّها رقراقة.

– أهي النوع المبارك الجديد؟ — استوضح الدكتور.

– لك الله، يا عزيزي — رد صاحب البيت — تلك سبيرتو.

إن داريا بتروفنا نفسها ماهرة في تحضير الفودكا.

– كلا، يا فيليب فيليبَفِتْش؛ فالجميع يؤكدون أن المحترمة جدًّا هي ٣٠ درجة.

– ولكن الفودكا يجب أن تكون درجتها ٤٠ وليس ٣٠، هذا أولًا — قاطعه فيليب فيليبَفِتْش بنبرةٍ تعليمية — وثانيًا، الله أعلم ماذا أضافوا إليها. هل تستطيع أن تقول ماذا يخطر لهم؟

– كل شيء، لفظ المعضوض واثقًا.

– وهذا رأيي أيضًا — أضاف فيليبَفِتْش ودلق محتوى القدح في حلقه دفعة واحدة ... م-م ... أتوسل إليك يا دكتور بورمنتال، هات تلك القطعة حالًا، وإذا قلتَ إن هذا ... أصبحتُ عدوك اللدود مدى الحياة. «من إشبيليا إلى غرناطة ...»

ومع هذه الكلمات كان بنفسه قد تناول بشوكته الفضية العريضة شيئًا شبيهًا بقطعةٍ صغيرة من الخبز الأسمر، ثم أعقبه المعضوض أيضًا، وتألقت عينا فيليب فيليبَفِتْش.

– أهذا سيئ؟ — تساءل فيليب فيليبَفِتْش وهو يلوك — سيئ؟ أجبني، أيها الدكتور المحترم.

– شيءٌ منقطع النظير — أجاب المعضوض صادقًا.

– وكيف لا ... لاحظ، يا إيفان أرنولدَفِتش، أن المقبِّلات الباردة والحساء لا يستعملها مع الشرب إلا الإقطاعيون الذين لم يقضِ عليهم البلاشفة.

أما الإنسان الذي يملك أدنى قدر من الاحترام لنفسه فإنه لا يستعمل إلا المقبلات الساخنة، وهذه هي الأفضل بين المقبلات الموسكوفية الساخنة. لقد كانوا يعدُّونها إعدادًا رائعًا ذات يوم في مطعم «البازار السلافي»، هاك، تلقَّ.

– أتطعم الكلب في غرفة الطعام — رنَّ صوتٌ نسائي — إذن لن تستطيع إغراءه بأي شيءٍ للخروج من هنا بعد الآن.

– لا بأس. لقد جاع المسكين — قدم فيليب فيليبَفِتْش قطعةً من المقبلات على رأس شوكة، فتلقاها الكلب بمهارةٍ ساحرة وأسقط الشوكة في قصعة الغسيل فأصدرت رنينًا.

ثم تصاعد من الصحون بخار تفوح منه رائحة السراطين. كان الكلب مقعيًا في ظل غطاء الطاولة، متخذًا هيئة حارس مستودَع للبارود. أما فيليب فيليبَفِتْش فقد شد الفوطة تحت قبته على شكل ذيل وأعلن واعظًا: الطعام شيء هام، يا إيفان أرنولدَفِتش، يجب أن نتعلم الأكل. ولكن، تصوَّر أن أكثرية الناس لا تعرف كيف تأكل. يجب ألا نكتفي بأن نعرف ماذا نأكل، بل متى وكيف نأكل (وهز فيليب فيليبَفِتْش ملعقته هزةً معبرة). وماذا تقول في هذه الحالة. نعم سيدي، إذا كنت تهتم بهضم طعامك فإليك نصيحتي الخيرة: لا تتحدث أثناء الطعام عن البلشفية وعن الطب. وإياك — حفظك الله — أن تقرأ قبل الغداء جرائد سوفييتية.

– إحم ... لكن لا يوجد غيرها.

– لذلك فلا تقرأ أية جرائد، هل تعرف أنني قمت بثلاثين متابعة عندي في المستشفى. وماذا تظن؟ إن المرضى الذين لا يقرءون الجرائد هم في صحةٍ رائعة. أما أولئك الذين أرغمتُهم عمدًا على قراءة جريدة «برافدا» فقد انخفض وزنهم.

– حمم ... — رد المغضوض باهتمامٍ وقد احمرَّ من الحساء والنبيذ.

– زد على ذلك أن عندهم استجاباتٍ ضعيفة في الركب وانعدام شهية وحالة انقباضٍ روحي.

– يا للشيطان ...

– نعم يا سيدي. على كل حال، ما لي أنا! فقد بدأت حديثًا عن الطب.

مال فيليب فيليبَفِتْش بجذعه وضغط زر الجرس فظهرت زينا عبر ستارة الباب الكرزية. حصل الكلب على قطعةٍ ثخينة شاحبة من سمك الزجر لم تعجبه، فتلتها في الحال قطعة لحم مدماة. والتهمها الكلب فأحس فجأة برغبة في النوم، ولم يعد في وسعه النظر إلى أي نوعٍ من الأكل، ثم فكَّر وهو يرمش بجفنيه الثقيلين: «إنه إحساسٌ غريب، ليت عينيَّ لم تشاهدا أي صنفٍ من الطعام. أما التدخين بعد الغداء فحماقة.»

امتلأت الغرفة بدخانٍ كريه أزرق، وغفا الكلب متوسدًا رجليه الأماميتين.

– إن «سان جوليان» نبيذ محترم — سمع الكلب وهو نائم — إلا أنه الآن مفقود.

كانت تترامى إلى سمعه من مكانٍ ما فوقه وإلى جانبه ترانيم متداخلة صماء، يلطِّف من وقعها السقف والسجاد، ضغط فيليب فيليبَفِتْش زر الجرس فجاءت زينا.

– ما معنى هذا، يا زينوشا؟

– إنه الاجتماع العام مرة أخرى، يا فيليب فيليبَفِتْش — أجابت زينا.

– مرة أخرى؟ — هتف فيليب فيليبَفِتْش بمرارة — إذن، يظهر أن المسألة الآن قد بدأت وضاعت عمارة كالابوخف. سيكون عليَّ أن أسافر، ولكنني أتساءل: إلى أين؟ ستسير الأمور على هواهم، وسيلجئون في البداية إلى الغناء كل مساء، ثم تتجمد المجاري في المراحيض، وبعدئذٍ ينفجر خزان التدفئة البخارية وهكذا دواليك.

إنها نهاية عمارة كالابوخف.

– إن فيليب فيليبتش يتعذب — لاحظت زينا مبتسمة وخرجت تحمل تلًّا من الصحون.

– وكيف لا أتعذب؟! — زأر فيليب فيليبَفِتْش — كم كانت رائعة هذه العمارة! فافهموا!

– إنك تنظر إلى الأشياء بسوداويةٍ فائقة يا فيليب فيليبَفِتْش — اعترض الجميل المعضوض — لقد تغيروا الآن تغيرًا كبيرًا.

– أنت تعرفني، أيها العزيز، أليس كذلك؟ إنني رجل وقائع، رجل ملاحظة.

فأنا عدو الفرضيات المعدومة الأساس. وهذا أمرٌ مشهور جدًّا ليس في روسيا وحدها بل في أوروبا. وعندما أقول شيئًا فذلك يعني أن كلامي يقوم على أساس واقعة ما أبني عليها استنتاجي. وإليك واقعة المشجب ورفِّ واقيات الأحذية في عمارتنا.

– هذا ممتع ...

«واقيات الأحذية شيء سخيف. فليست السعادة في واقيات الأحذية — فكر الكلب — لكنه شخصية فذة.»

– أجل، رفُّ واقيات الأحذية. إنني أعيش في هذه العمارة منذ سنة ١٩٠٣م. وهكذا، فإنه خلال هذا الزمن وحتى مارس ١٩١٧م لم يحدث ولو مرة واحدة، وأؤكد بخطٍّ أحمر: «ولا مرة» أن فُقِدَ ولو زوج واحد من واقيات الأحذية تحت، في مدخل العمارة، رغم بقاء الباب الرئيسي مفتوحًا. ولتلاحظ أن في عمارتنا اثنتي عشرة شقة، وعندي استقبال مرضى. وفي يومٍ رائع من مارس ١٩١٧م فُقدت جميع واقيات الأحذية بما في ذلك زوجان لي، وثلاث عصي ومعطف وسماور للبواب. ومنذ ذلك الحين غاب رف واقيات الأحذية عن الوجود. فيا عزيزي! ثم إنني لا أتكلم عن التدفئة البخارية. لا أتكلم. ليكن، ما دام هناك ثورة اجتماعية فلا حاجة للتدفئة. غير أنني أتساءل: لماذا صار الجميع يسيرون على الدرج المرمري بواقياتٍ وجزمات لبَّادية قذرة منذ أن بدأت هذه القصة؟ لماذا حتى الآن يجب أن نقفل على واقيات الأحذية؟ بل وعلينا أيضًا أن نُعيِّن لها جنديًّا كي لا يسرقها أحد؟ لماذا أخذوا السجاد عن دَرج المدخل الرئيسي؟ هل تُرى يمنع كارل ماركس الاحتفاظ بسجادٍ على الدَّرج؟ هل تُرى يذكر كارل ماركس في مكانٍ ما أن المدخل الثاني في عمارة كالابوخف ينبغي أن يُسدَّ بالأخشاب ليدور الناس حول البيت بغية الدخول من الباب الاحتياطي؟ من يحتاج إلى ذلك؟ لماذا لا يستطيع البروليتاري أن يترك واقيات أحذيته تحت، بل هو يوسخ المرمر؟

– ولكن ليس عنده واقيات أحذية، يا فيليب فيليبَفِتْش — أخذ المعضوض يتلعثم.

– لا شيء من هذا القبيل! — أجاب فيليب فيليبَفِتْش بصوتٍ هدَّار وملأ الكأس نبيذًا — هَمْ ... إنني لا أعترف بالليكيور[١] بعد الغداء، فهو يُثقل ويؤثر تأثيرًا سيئًا على

[١] مشروب كحلِّيٌّ كثيف حلو. (المترجم)

الكبد ... لا شيء من هذا القبيل! إن البروليتاري يحتذي الآن الواقيات، وهذه الواقيات ... هي واقياتي! إنها بالضبط واقياتي نفسها التي اختفت في ربيع ١٩١٧م. أتساءل، مَن سرقها؟ أنا؟ مستحيل، البرجوازي شابلن؟ (وأشار فيليب فيليبَفِتْش بإصبعه إلى السقف). من المضحك افتراض ذلك، صاحب معمل السكر بولوزَف؟ (وأشار فيليب فيليبَفِتْش إلى الجانب)، ولا بحالٍ من الأحوال. لقد فعل ذلك هؤلاء الناعقون أنفسهم! نعم، سيدي! ويا ليتهم على الأقل يخلعونها على السلم! (شرع فيليب فيليبَفِتْش يحمر)، ولأي شيطانٍ أزالوا الأزهار من فسحات الدَّرج؟ لماذا صارت الكهرباء تنقطع بانتظامٍ مرة كل شهر في الوقت الحالي، في حين لم تنقطع إلا مرتين — اللهم احفظ ذاكرتنا — خلال عشرين عامًا؟ إن علم الإحصاء شيءٌ فظيع، يا دكتور بورمنتال. وأنت، بصفتك، مطلعًا على عملي الأخير، تعرف ذلك خيرًا مما يعرفه أيٌّ كان.

– إنه الخراب، يا فيليب فيليبَفِتْش.

– كلا — اعترض فيليب فيليبَفِتْش بثقةٍ تامة — كلا، وأنت، يا عزيزي إيفان أرنولدفيتش، أول من يجب عليه الامتناع عن استعمال هذه الكلمة بالذات. إنها سراب، دخانٌ، وهمٌ — وفتح فيليب فيليبَفِتْش أصابعه القصيرة بتشنجٍ فألقت على غطاء الطاولة ظلَّين تململا وكأنهما سحلفاتان — ما معنى هذا الخراب لديك؟ عجوز بعكاز؟ الساحرة التي كسرت الزجاج كله وأطفأت جميع المصابيح؟ إنها غير موجودة أصلًا، ما الذي تعنيه بهذه الكلمة؟ — وجَّه فيليب فيليبَفِتْش سؤاله بغضبٍ مهول إلى البطة الكرتونية البائسة المعلقة من ساقيها بجانب خزانة الأواني، وقام نفسه بإعطاء الجواب عنها؛ إليك ما هو ذلك: إنني إذا كنت سأشرع بالغناء في شقتي مع جوقة بدلًا من إجراء العمليات كل مساء، فلا بد أن يصيبني الخراب. وإذا كنت حين أدخل إلى المرحاض — واعذرني على هذا التعبير — سأبدأ أبول قرب الحوض، وستفعل الشيء نفسه كلٌّ من زينا وداريا بتروفنا، فلا بد أن يبدأ الخراب في المرحاض؛ وبالتالي، فإن الخراب ليس في المجارير وإنما في الرءوس. إذن، فعندما يرفع هؤلاء عقيرتهم قائلين: «اضرب الخراب!»، فإنني أضحك. (بلغ وجه فيليب فيليبَفِتْش درجةً من الامتعاض جعلت المعضوض يفغر فاه)، أقسم لك إنه لشيءٌ يضحكني! هذا يعني أن كل واحدٍ منهم يجب أن يصفع نفسه على قَذَاله! وهكذا، عندما ينفُض البروليتاري عن نفسه جميع الهلوسات ويشرع بتنظيف الحظائر — وهذا عمله المباشر — فإن الخراب سيزول من تلقاء نفسه، فلا يمكن عبادة إلهين! إذ من المستحيل القيام في وقتٍ واحد بتنظيف سكك الترام وبتدبر مصائر بؤساء إسبان ما! إن ذلك لا يتاح

لأحدٍ، يا دكتور، ولا سيما للناس الذين هم بالجملة، فضلًا عن تخلفهم في التطور عن الأوربيين قرابة مائتي سنة، ما زالوا حتى الآن لا يحسنون تزرير بناطيلهم بثقةٍ تامة!

كان فيليب فيليبَفِتْش قد أخذته الحماسة. وكان منخراه الباشقيان يعلوان ويهبطان. لقد استجمع قواه بعد غداءٍ دسم وراح يهدر مثل نبي قديم، ورأسه يلمع كالفضة.

كانت كلماته تتساقط على الكلب النعسان كأنها صدى أصم يترامى من تحت الأرض. وكانت تتواثب في حلمه تارة البومة ذات العينين الصفراوين الغبيتين، وطورًا خطم الطباخ الكريه ذي القبعة البيضاء القذرة، وحينًا الشارب المتبختر لفيليب فيليبَفِتْش تضيئه كهرباء ساطعة عبر ظليلة المصباح، ومرة زحافات ناعسة تصرُّ ثم تختفي، بينما كانت قطعة لحم ممزقة تتقلب في بطن الكلب.

«إن في وسعه أن يكسب المال في التظاهرات العامة فورًا ... — راح الكلب يحلم على نحوٍ ضبابي — فهو عملي من الطراز الأول. وعلى كل حال، فإنه يملك حتى بدون ذلك على ما يبدو، أموالًا لا تأكلها النيران.»

– الشرطي! — صرخ فيليب فيليبَفِتْش — الشرطي! «أوهو–هو –هوو!» كان ثمة فقاعات ما تنفجر في دماغ الكلب ... الشرطي! هذا، وهذا وحده. وليس هامًّا على الإطلاق أن يكون ذا لوحة معدنية أو يرتدي قبعةً حمراء. يجب وضع شرطي بجانب كل إنسانٍ وإجبار هذا الشرطي على تهدئة نزوات الغناء لدى المواطنين.

أنت تقول: الخراب، وأنا أقول لك، يا دكتور، إنه لن يتغير شيء نحو الأحسن في عمارتنا ولا في أية عمارةٍ أخرى، قبل أن تتم تهدئة هؤلاء الناعقين! وما إن يوقفوا حفلاتهم حتى يتغير الوضع نحو الأحسن من تلقاء نفسه.

– إنك تقول أشياء معادية للثورة، يا فيليب فيليبَفِتْش — لاحظ المعضوض مازحًا — لا قدَّر الله أن يسمعك أحد.

– إنني لا أقول شيء خطير — اعترض فيليب فيليبَفِتْش بحرارة — لا أقول أي شيءٍ معادٍ للثورة، وبالمناسبة، فهذه هي الكلمة الأخرى التي لا أطيقها ألبتة. فليس معلومًا ما المراد بها؟ الشيطان أدرى! وهكذا فأنا أقول: «لا أثر لهذه الثورة المضادة في كلامي أبدًا، بل فيه حكمة سليمة وخبرة حياتية.»

وهنا أخرج فيليب فيليبَفِتْش من تحت قبته ذيل الفوطة اللمَّاعة المجعدة، ثم ضمها اعتباطًا ووضعها بالقرب من كأس النبيذ التي لم تنفد. وفي الحال نهض المعضوض وشكره قائلًا: «ميرسي.»

– دقيقة، يا دكتور! — استوقفه فيليب فيليبَفِتْش، وأخرج من جيب بنطلونه حافظة النقود، كوَّر عينيه وعد جزءًا من الأوراق النقدية البيضاء، ثم ناولها للمعضوض قائلًا: إن لك اليوم، يا إيفان أرنولدَفِتش أربعين روبلًا، تفضَّل.

أعرب المتضرر من الكلب عن شكره باحترام، ثم دسَّ النقود في جيب جاكيته وهو يحمرُّ.

– هل تحتاجني اليوم مساء، يا فيليب فيليبَفِتْش؟ — استفسر الدكتور.

– كلا. أشكرك، يا عزيزي. لن نعمل اليوم شيئًا. أولًا، لقد نفقَ الأرنب المنزلي، وثانيًا، تُعرض اليوم أوبرا «عايدة» في مسرح البلشوي. إنني لم أسمعها من زمان. وأنا أحبها ... هل تذكر؟ الثنائي ... تاري-را-ريم.

– كيف يكفيك الوقت، يا فيليب فيليبَفِتْش؟ — سأله الطبيب باحترام.

– الوقت يكفي دائمًا كلَّ من لا يستعجل — أوضح صاحب البيت واعظًا.

– طبعًا، لو أنني شرعت أقفز راكضًا إلى الاجتماعات وأغني طوال اليوم مثل البلبل، بدلًا من ممارسة عملي الحقيقي، لما كان الوقت يكفيني لفعل أي شيء — وعزف منبه التاسعة نغمًا سماويًّا تحت أصابع فيليب فيليبَفِتْش في جيبه — إنها بداية التاسعة ... سألحق بالمشهد الثاني ... فأنا من أنصار تقسيم العمل. دعهم يغنُّون في البلشوي. أما أنا فسوف أمارس الجراحة. حسنًا، وبلا أي خراب ... اسمع، يا إيفان أرنولدَفِتش، عليك، رغم كل شيء، أن تتابع باهتمام: ما إن تقع لك جثة مناسبة حتى تأخذها عن الطاولة فتضعها في سائلٍ مغذٍّ وتجيء بها إليَّ حالًا.

– لا تقلق، يا فيليب فيليبَفِتْش؛ فقد وعدني أطباء التشريح الباثالوجي.

– ممتاز. أما نحن فسنظل إلى حينٍ نراقب هذا العصبي الشريد، ريثما تلتئم خاصرته.

«إنه يهتم بي — فكر الكلب — إنسانٌ جيد جدًّا. أعرف مَن هو. إنه ساحرٌ وعرَّاف من حكاية للكلاب ... فلا يمكن أن أكون قد رأيت هذا كله في الحلم. أما إذا كان حلمًا؟ (وارتعش الكلب في نومه)؛ فقد استيقظ ولا أجد شيئًا، لا المصباح المظلل بالحرير، ولا الدفء ولا الشبع. سأعود إلى البوابة من جديد، إلى البرد المجنون، والإسفلت المتجمد، والجوع والناس الأشرار ... المطعم، الثلج ... يا إلهي، كم سيكون ذلك صعبًا عليَّ! ...»

الفصل الرابع

غير أن شيئًا من ذلك لم يحدث؛ فقد ذابت البوابة نفسها مثل حلمٍ قذر، ولم ترجع أبدًا.

واضحٌ أن الخراب ليس مرعبًا إلى هذا الحد. وبغضِّ النظر عن الخراب. كانت موسيقا هارمونيكات تنساب بحرارةٍ مرتين في اليوم تحت حافة النافذة، وتنشر موجات دفء في الشقة بأسرها.

وجليٌّ تمامًا أن الكلب سحب البطاقة الرابحة من بين بطاقات الكلاب، وها هما عيناه تترقرقان الآن ما لا يقل عن مرتين في اليوم بدموعِ الشكر لحكيم بريتشيستِنْسكيا. زد على ذلك أن مرايا الزينة كلها، في غرفة الضيوف وفي غرفة الاستقبال بين الخزائن. كانت تعكس صورة الكلب الجميل المحظوظ.

«جميلٌ أنا، ربما أكون أمير الكلاب المجهول إينكوغنيتو — راح الكلب يفكر محدِّقًا إلى الكلب البني الأشعث البادي السرور وهو يتنزه في أعماق المرايا — ثمة احتمال كبير جدًّا بأن تكون جدتي قد زنت مع غطَّاس؛ ولهذا أرى بقعة بيضاء على خطمي؛ فالسؤال هو: من أين هذه البقعة؟ إن فيليب فيليبَفِتْش رجل ذوق رفيع، وهو لن يلتقط أي كلب يقع له عفو المصادفة.»

التهم الكلب خلال أسبوع مقدار ما نال في الشارع خلال الشهر ونصف الشهر الماضيين المفعمين بالجوع، ولكن المقصود هنا، بالطبع، هو الوزن وحده. أما نوعية الطعام عند فيليب فيليبَفِتْش فأمرٌ غير قابل للمقارنة. حتى إذا لم نأخذ بعين الاعتبار أن داريا بتروفنا كانت تشتري له يوميًّا من سوق سملينسكي كومة نفايات بقيمة ١٨ كوبيكًا، فيكفي أن نُشير إلى وجبات غداء السابعة مساء التي كان الكلب يحضرها في غرفة الطعام على الرغم من اعتراضات الأنيقة زينا؛ فقد نال فيليب فيليبَفِتْش في أثناء تلك الوجبات، لقب المعبود، وعلى نحوٍ نهائي. كان الكلب يقعي على خلفيتيه ويلوك الجاكيت، وقد حفظ الكلب جرس فيليب فيليبَفِتْش؛ إذ حين يضغط على الزر مرتين كاملتين متتابعتين يطير الكلب

نابحًا لاستقباله في فسحة المدخل. كان صاحب البيت يدلف متدحرجًا بمعطفٍ من فرو ثعلب قاتم السواد يشعشع بمليون حبة ثلج، فتفوح منه رائحة ثمار اليوسفي والسيكار والعطور والليمون والبنزين والكولونيا والجوخ. وكان صوته يدوِّي في المسكن بأسره مثل بوق الأوامر.

– لماذا مزَّقت البومة يا خنزير؟ هل كانت تضايقك؟ إنني أسالك، هل كانت تضايقك؟ لماذا كسرت صورة البروفيسور ميتشنِكُف؟

– يجب جلده بالكرباج ولو مرة واحدة، يا فيليب فيليبَفِتْش — قالت زينا بامتعاض — وإلا فإن الدلال سيفسده تمامًا. انظر ماذا فعل بواقيتَي حذائك.

– لا يجوز جلد أحد، تخوَّف فيليب فيليبَفِتْش — احفظي هذا مرة وإلى الأبد. لا يمكن التأثير على الإنسان والحيوان إلا بطريقة الإيحاء وحدها، هل قدَّمت له اليوم لحمًا؟

– يا إلهي، لقد التهم البيت كله! يا للسؤال، يا فيليب فيليبَفِتْش! إنني أعجب كيف لا ينفجر!

– دعيه يأكل، بالعافية ... فيمَ أعاقتك البومة، يا أزعر؟

– عو! وكشر الكلب المتملق، ثم زحف على بطنه وقد قلب راحتيه.

بعدئذٍ جرُّوه من تلابيبه وهو يعوي عبر غرفة الاستقبال إلى المكتب. وأخذ الكلب يطلق عواء ضعيفًا وهو يقاوم ويتشبث بالسجادة، مستندًا إلى مؤخرته كما في السيرك. كانت البومة ذات العين الزجاجية ملقاة على السجادة في وسط المكتب، تتدلى من بطنها المبقور خروق تفوح منها رائحة النفتلين. وعلى الطاولة تناثرت شظايا الصورة المحطَّمة.

– إنني تعمدت ألا أنظف المكان بغية أن تُمتع ناظريك — تكلمت زينا بانزعاج — لقد قفز السافل إلى الطاولة، ثم شد البومة من ذيلها! ولم يتسنَّ لي أن أفيق من ذهولي حتى كان قد مزقها كلها. اغرز خطمه في البومة، يا فيليب فيليبَفِتْش، لكي يعرف كيف يُخرِّب الأشياء.

ثم انطلق العواء؛ فقد كانا يحاولان جر الكلب الملتصق بالسجادة للوصول به إلى البومة، فانهمرت الدموع المريرة من عينيه وراح يفكر: «اضربوني، ولكن شريطة ألا تطردوني من الشقة.»

– أرسلي البومة إلى الصانع اليوم حتمًا، وهاك ٨ روبلات و١٦ كوبيكا أجرة ترام كي تذهبي إلى ميور وتشتري للكلب ساجورًا[١] مع جنزيرٍ جيد.

---

[١] الساجور للكلب مثل الرسن للحمار. (المترجم)

في اليوم الثاني ألبسوا الكلب ساجورًا واسعًا لَمَّاعًا. نظر في اللحظة الأولى إلى المرآة وانزعج أيَّما انزعاج، فضم ذيله ومضى إلى الحمام وهو يفكر كيف يقطعه بحكه على العنبر أو الصندوق. غير أن الكلب سرعان ما فهم أنه ليس إلا أحمق؛ فقد قادته زينا من ساجوره ليتنزه في زقاق أبوخَف، سار كالسجين يحرقه الخجل، ولكن بينما كان يعبر شارع بريتشيستِنْكيا إلى «معبد المسيح»، أدرك جيدًا ما معنى الساجور في الحياة. كان يقرأ الحسد في عيون جميع الكلاب التي مرت به. أما عند زقاق ميورتفي فقد راح كلبٌ طويل الشعر مقطوع الذَّنب ينبحه ويعيِّره بـ «وغد السادة». وحين اجتازا سكة الترام نظر الشرطي إلى الساجور بسرورٍ واحترام، ولكنْ حدث في أثناء العودة أغرب شيء في الحياة؛ فقد نهض البواب فيودَرْ نفسه وبيديه فتح الباب الرئيسي ليعبره شارك. ووقتئذٍ قال لزينا: يا للكلب الأشعث الذي اقتناه فيليب فيليبِفِتْش. بل إنه سمينٌ على نحوٍ عجيب.

– وكيف لا. إنه يلتهم طعام ستة — أوضحت زينا الجميلة والمحمرة من الثلج.

«إن الساجور مثل الحقيبة تمامًا» — تهكم الكلب في سريرته ومضى في أعقاب زينا إلى الطابق الثاني وهو يهز مؤخرته مثل سيد أرستقراطي.

وبعد أن قدَّر الكلب ساجوره حقق قدره، قام بأول زيارة إلى ذلك الجزء الرئيسي من الجنة الذي كان ممنوعًا عليه دخوله قبل ذلك منعًا باتًّا؛ أي تحديدًا إلى مملكة الطباخة داريا بتروفنا؛ فالشقة بأسرها لم تكن تساوي شبرين من مملكة داريا هذه. كانت النار تتقد ويتطاير شررها كل يوم في الفرن الأسود المغطى أعلاه برخامٍ أبيض. وكانت حجرة الفرن تطقطق. وكان وجه داريا بتروفنا من خلال ألسنة اللهب القانية يتوهج بعذابٍ ناري خالد وشهوة لم ترتوِ. كان ينضح بدهنٍ يلمع.

وكانت اثنتان وعشرون ماسة زائفة تتألق في تسريحتها الحديثة لشعرها الأشقر الممشَّط فوق أذنيها والملموم على هيئة سُلَّة صغيرة على قذالها. وكانت تتدلى من المحاجن في الجدران قدور ذهبية، فيما كان المطبخ بأسره مثقلًا بالروائح والضجيج المنبعث من أوانيه المغلقة ...

– اخرج! — زأرت داريا بتروفنا — اخرج، أيها النشال الشريد! لا ينقصنا غيرك هنا! سأضربك بالمحراك! ...

«ما لك؟ طيب، ما لك تنبحين؟ — كوَّر الكلب عينيه متضرعًا — أي نشال أنا؟ ألا تلاحظين الساجور؟» وحَبَا نحو الباب وَرْبًا وهو يمد خطمه نحوها.

كان الكلب شارك يتمتع بسرٍّ خفي لاستعطاف قلوب الناس؛ فبعد يومين كان مستلقيًّا بقرب قفَّة الفحم، ينظر كيف تشتغل داريا بتروفنا. وكانت هي تقطع رءوس وأرجل زرازير بائسة بسكِّينٍ حادة ضيقة النصل، ثم تسلخ اللحم عن العظام، كأنها جلادٌ محقون بالغضب، وتُخرِج أحشاء الدجاج وتدير شيئًا ما في طاحونة اللحم. كان شارك وقتئذٍ يمزق رأس زرزور، راحت داريا تُخرج من قدر الحليب قطع خبز مبللة وتخلطها فوق لوحٍ خشبي مع اللحم المطحون وتسكب على هذا الخليط قشدة، ثم ترشُّ عليه الملح وتصنع منه أقراص الكباب على اللوح الخشبي. كانت النار تئزُّ في الموقد كما في حريق. وكانت تنبعث من المقلاة طقطقة وتتواثب فقاعات، فيما راحت نافذة الفرن ترعد وتكشف عن الجحيم الرهيب الذي كان اللهب يتأجج ويتراقص فيه.

أخذ الشدق الحجري يخمد في المساء، فيما خيَّم ليل بريتشيستِنْسكِيا المتغطرس الكثيف، ذو النجمة الوحيدة، على الستارة النصفية البيضاء في نافذة المطبخ. وكانت أرض المطبخ رطبة، وبريقٌ خفي كابٍ ينبعث من القدور. وكان على الطاولة قبَّعة إطفاء. وكان شارك راقدًا على سطح الموقد الدافئ، مثل ليث في بوابة، حين رفع إحدى أذنيه فضولًا فشاهد رجلًا مضطربًا، أسود الشاربين، يتمنطق بحزامٍ جلدي عريض وهو يعانق داريا بتروفنا خلف الباب نصفِ المفتوح في غرفة الخدم. كان وجهها كله يشتعل بالعذاب والشهوة ما عدا أنفها المبودر الهامد. وكان شعاع ضوء يسقط على صورة الرجل الأسود الشاربين، وقد تدلت منها وردة عيد الفصح.

– لصقت بي مثل الشيطان — غمغمت داريا بتروفنا في العتمة — دعني! ستأتي الآن زينا، ما لك، هل أعاد الشبابَ إليك أنت أيضًا.

– ليس بي أي حاجة لذلك — رد أسود الشاربين مضطربًا، مبحوح الصوت — كم أنت حارَّة!

في الأماسي كانت نجمة بريتشيستِنْسكِيا تختفي وراء حجب ثقيلة، فيجلس المعبود في كنبةٍ عميقة في مكتبه، إذا لم تكن «عايدة» تُعرَض في مسرح البلشوي، أو لم يكن هناك اجتماع لجمعية الجراحين لعموم روسيا. لم يكن في السقف أضواء. كان مصباح واحد أخضر يشتعل على الطاولة. وكان شارك يرقد على السجادة في الظل وهو ثابت النظر إلى أشياء رهيبة؛ فهناك أوانٍ زجاجية تحتوي أدمغة بشرية محفوظة في سائلٍ كاوٍ، كريه، عكر. كانت يدا المعبود العاريتان غائصتين حتى الكوع في قفازين مطاطيين أحمرين.

وكانت أصابعه الصماء اللزجة منهَمِكة بتفحص التعاريج. وبين الحين والحين كان المعبود يتسلح بمشرطٍ برَّاق صغير، ويشق الأدمغة الصفراء المرنة بأناة.

– «إلى شواطئ النيل المقدسة» — نغَّم المعبود بهدوء وهو يعض شفتيه ويتذكر مسرح البلشوي الذهبي من الداخل.

كانت أنابيب التدفئة تُسخَّن في هذه الساعة إلى أقصى درجة، وكان الدفء ينبعث منها نحو السقف لينتشر من هناك في كل أرجاء الغرفة، فيما ينتعش في جلد الكلب آخر برغوث لم يستطع فيليب فيليبَفِتْش نفسه بعدُ أن يستأصله، ولكنه مقضيٌّ عليه حتمًا. كانت السجادات تمتص الأصوات في الشقة. وعندئذٍ يترامى رنين باب المدخل بعيدًا.

«لقد ذهبت زينا إلى السينما — فكر الكلب — وسوف نتعشى حين تأتي، على ما يبدو، ويُفترض أن يكون العشاء اليوم من لحم عجل مدقوق!»

أحس شارك في هذا اليوم الرهيب بوخزة إحساس مبهم منذ الصباح. وانتابه الملل فجأة بفعل ذلك. فتناول إفطاره المؤلَّف من نصف صحن من الشوفان وعظم غنم بائت، دون أية شهية. مشى إلى غرفة الاستقبال ضجرًا، وهناك أطلق عواء ضعيفًا على صورته في المرآة، ولكن بعد أن اصطحبته زينا نهارًا للنزهة في الحديقة، مرَّ اليوم عاديًّا. لم يكن هناك استقبال للمرضى اليوم؛ لأنه لا استقبال يوم الثلاثاء، كما هو معروف، فجلس المعبود في مكتبه وبسط على الطاولة كتبًا ثقيلة فيها صورة ملونة.

كانوا في انتظار الغداء. فبعثت في الكلب شيئًا من النشوة فكرةُ أن الطبق الثاني اليوم، كما تأكد له في المطبخ، سيكون دجاجة رومية، وبينما كان الكلب يجتاز الممر سمع جرس الهاتف في مكتب فيليب فيليبَفِتْش يرن رنينًا كريهًا ومفاجئًا، رفع فيليب فيليبَفِتْش السماعة وأنصت ثم اضطرب فجأة.

– ممتاز! — سمع صوته — انقله حالًا، على الفور!

ثم أكثرَ من الحركة وضغط زر الجرس، وحين دخلت زينا أمرها بأن تعد الغداء حالًا.

– الغداء! الغداء! الغداء!

وسرعان ما تعالت قرقعة الصحون في غرفة الطعام. كانت زينا تركض حين ترامى من المطبخ هديل داريا بتروفنا بأن الدجاجة الرومية ليست جاهزة بعد. فأحس الكلب بالقلق من جديد.

شرع يفكر: «إنني لا أحب اللهوجة[٢] في الشقة» ... وما إن خطر له ذلك حتى اتخذت اللهوجة طابعًا أكثر بشاعة ... وذلك قبل كل شيءٍ بسبب قدوم الدكتور بورمنتال الذي عضَّه شارك ذات مرة؛ فقد أحضر معه حقيبةً كريهة الرائحة، ثم اندفع بها عبر الممر إلى غرفة الكشف حتى دون أن يخلع ما يجب خلعه. تخلَّى فيليب فيليبَفِتْش عن فنجان القهوة قبل أن يُكلِّمه، وذلك ما لم يفعله أبدًا، ثم انطلق راكضًا نحو بورمنتال، وذلك أيضًا ما لم يحدث أبدًا.

– متى مات؟ — صرخ.

– قبل ثلاث ساعات — أجاب بورمنتال دون أن يخلع قبعته الملطخة بالثلج وشرع يفك الحقيبة.

«من الذي مات؟ — فكَّر الكلب مقطبًا وممتعضًا ثم انحشر تحت أرجلهما — إنني لا أطيق اللهوجة.»

– اخرج من تحت رجلي بسرعة، بسرعة! — صرخ فيليب فيليبَفِتْش في جميع الاتجاهات وراح يقرع كل الأجراس، كما خُيِّلَ للكلب، فجاءت زينا راكضة — زينا، نادي داريا بتروفنا إلى الهاتف، وسجِّلوا الأسماء ولا تستقبلوا أحدًا، أنا بحاجةٍ إليك يا دكتور بورمنتال، أسرِع، أسرِع!

«لا يعجبني هذا، لا يعجبني» — قطَّب الكلب حَرِدًا ومضى يتمشَّى في الشقة، فيما تركزت الحركة كلها في غرفة الكشف. وعلى غير انتظارٍ بدت زينا في مريلةٍ تشبه الكفن، وطفقت تطير من غرفة الكشف إلى المطبخ وبالعكس.

«أأذهب فآكل؟ وليبتلعهم مستنقع» — قرر الكلب، فتلقى مفاجأة في الحال.

– لا تقدموا لشارك شيئًا — رعد أمرٌ من غرفة الكشف.

– معلوم، من السهل أن تراقبه.

– احبسوه!

ثم استدرَجوا شارك وحبسوه في الحمام.

«يا للجلافة — فكر شارك وهو جالس في غرفة الحمام شبه المظلمة — ليس إلا حماقة ...»

[٢] اللهوجة: القيام بعملٍ ما على نحوٍ سريع، فوضوي، مستعجل. (المترجم)

ثم أمضى في الحمام قرابة ربع ساعة وهو في حالةٍ روحية غريبة، غاضبٌ تارة، وتارة في حالة انهيارٍ ثقيلة. كان كل شيء مضجرًا وغامضًا …

«طيب، سيكون عندك واقيات أحذية غدًا، يا فيليب فيليبَفِتْش المبجل — خطر للكلب — إنك اضطررت لشراء زوجين من الواقيات وستشتري زوجًا آخر، لكيلا تحبس الكلاب.»

غير أن فكرته الغامضة انقطعت فجأة. ولسببٍ ما تذكَّر بغتة وعلى نحوٍ جلي فترة تعود إلى مطلع صباه الباكر: فناءٌ مشمس مترامي الأطراف عند مخفر بريوبراجينسكيا، شظايا شمس في قوارير، قرميد مكسر وكلاب شريدة طليقة.

«كلا، إلى أين، إنك لن تخرج إلى الحرية من هنا أبدًا، لماذا الكذب — واجتاح الحنين الكلب فنشم أنفه — لقد تعودت. إنني كلب سادة، كائنٌ مهذب، خبرت أفضل حياة. بل وما هي الحرية؟ إنها دخان، سراب، وهمٌ … هذيانُ هؤلاء الديمقراطيين التعساء …»

ثم صار غبش العتمة في الحمام مرعبًا، فعوى واندفع إلى الباب وطفق يخدشه.

– عو-و-و! تردد صوته في الشقة كما في برميل.

«سأمزق البومة مرةً أخرى» — فكر الكلب مسعورًا ولكن عاجزًا. ثم أصابه الوهن فاستلقى، وحين نهض وقف شعر جلده، إذ تخيل، لسببٍ ما، وهو في الحمام عينَي ذئب شنيعتين.

انفتح الباب وهو في عنفوان عذابه، نفض الكلب جسمه وخرج وقد عزم متجهمًا على دخول المطبخ. غير أن زينا جرَّته من الساجور بإصرارٍ إلى غرفة الكشف. أحس الكلب ببرودةٍ تخترقه تحت قلبه.

«لماذا هم بحاجةٍ إليَّ؟ — فكَّر بارتياب — فقد شُفيت خاصرتي. إنني لا أفهم شيئًا»، وتشبثت أرجله بالأرض الخشبية الملساء، فجرُّوه جرًّا إلى غرفة الكشف، وسرعان ما صعقته فيها الإنارة التي لم يرَ مثلها. كانت كرةٌ بيضاء تحت السقف تبعث نورًا يجرح العيون. وكان يقف في هذا الضوء الأبيض الباهر كاهنٌ يتغنى من خلال أسنانه بشواطئ النيل المقدسة. لم يكن ممكنًا أن يعرف فيليب فيليبَفِتْش إلا بواسطة رائحته المبهمة وحسب. كان شعره القصير الأشيب مخفيًّا تحت قبعةٍ بيضاء تشبه قلنسوة البطريرك؛ كان كاهنًا مكللًا بالبياض وكان مثل مطران يرتدي فوق الأبيض مِيدعة مطاطية ضيقة. وكانت يداه في قفازين أسودين.

ظهر المعضوض في قلنسوةٍ أيضًا. كانت الطاولة الطويلة مفتوحة، ثم أدنوا منها طاولة مربعة صغيرة على قائمةٍ براقة.

وهنا بلغ الكُره بالكلب ذروته، ولا سيما على المعضوض، وذلك بسبب عينيه اليوم قبل كل شيء. إنهما في العادة جريئتان ثابتتان فإذا بهما الآن تحومان في جميع الاتجاهات هربًا من عينَي الكلب.

لقد كانتا متوفزتين، زائغتين. وكان يستتر في أعماقهما فعلُ شيء قذر، إن لم يكن جريمة كاملة. ألقى الكلب إليه نظرةً ثقيلة مكفهرَّة ومضى إلى الزاوية.

– هاتي الساجور، يا زينا — نطق فيليب فيليبَفِتْش بصوتٍ خفيض — ولكن إياك أن تُخيفيه.

وفي لمح البصر تجلَّى في عينَي زينا قدْرٌ من الخسة مساوٍ تمامًا لما في عينَي المعضوض، واقتربت من الكلب ومسَّدته بنفاقٍ جليٍّ، فنظر إليها بضجرٍ واحتقار.

«وماذا ... إنكم ثلاثة، خذوني، إذا شئتم، ولكنه عارٌ عليكم ... ليتني على الأقل أعرف ماذا ستفعلون بي ...»

فكَّت زينا الساجور فهز الكلب رأسه ونخر. وبرز المعضوض أمامه فاندلعت منه رائحةٌ بشعة مدوِّخة.

– أسرع، يا دكتور — نطق فيليب فيليبَفِتْش بنفاد صبر.

انتشرت في الهواء رائحةٌ حادة وحلوة. تابعه المعضوض بعينيه المتوفزتين التافهتين، ثم استلَّ يده اليمنى من وراء ظهره، وسرعان ما دسَّ في أنف الكلب قبضة قطن مبللة، فارتبك شارك وأحس في رأسه بدوارٍ خفيف، ولكن تسنَّى له أن ينتفض مرتدًّا. غير أن المعضوض وثب خلفه، وفجأة كمَّم خطمه كله بالقطن، فانحبست أنفاس الكلب في الحال، إلا أنه استطاع أن يتخلص منه ثانيًا، «يا للشرير ... عبَرت في رأسه هذه الكلمة ... لماذا؟». ثم أعادوا تكميمه مرةً أخرى، وبغتة تخيل هنا، في وسط غرفة الكشف، بحيرة بقوارب فيها كلاب من العالم الآخر مرحةٌ وردية اللون منقطعة النظير، ثم خارت أرجله وانثنت.

– إلى الطاولة! — دوَّت كلمات فيليب فيليبَفِتْش بصوتٍ مرح في مكانٍ ما، وانداحت في شلالاتٍ برتقالية، غاب الرعب وحل محله الفرح. وقرابة ثانيتين كان الكلب الآخذ بالانطفاء يحب المعضوض. ثم انقلب العالم كله عاليه سافله، وكان الكلب ما يزال يشعر بيدٍ باردة ولذيذة تحت بطنه، وبعدئذٍ، لا شيء.

كان الكلب شارك باسطًا أطرافه وهو مستلقٍ على طاولة العمليات الضيقة، فيما رأسه يدق بضعفٍ مخدة مشمعة بيضاء. كان بطنه محلوقًا، وقد شرع الدكتور بورمنتال الآن يحلق رأس شارك ويتنفس بسرعة وصعوبة، استند فيليب فيليبَفِتْش بكفيه إلى طرف

الطاولة وراح يراقب بعينيه البرَّاقتين، مثل إطارَي نظارتيه الذهبيتين، هذه العملية ويتكلم باضطراب.

– إن أهم لحظة، يا إيفان أرنولدَفِتش، هي عندما أدخل منطقة السرج التركي في المخ. أتوسل إليك أن تناولني الزائدة عندئذٍ بلمح البصر وتبدأ التخييط حالًا. فإذا ما بدأ الدم حينها بالنزيف أضعنا الوقت وفقدنا الكلب. وعلى كل حال، فإنه في جميع الأحوال لا نصيب له من الحظ إطلاقًا — ثم صمت مكوِّرًا عينيه وألقى نظرة شبه ساخرة إلى عين الكلب المفتوحة بالكاد، وأضاف: ولكن، هل تعرف. إنني متأسفٌ عليه، تصوَّر. لقد تعودت عليه.

ورفع يديه في هذه الأثناء كأنه يبارك الكلب التعس شارك من أجل اجتراح مأثرة صعبة. كان يحاول ألا تقع ذرة غبار واحدة على القطعة المطاطية السوداء.

وراح يلمع من تحت الشعر المحلوق جلد الكلب الضارب للبياض. ألقى بورمنتال بآلة الحلاقة وتسلَّح بشفرة، ثم صوبن الرأس الصغير العاجز وشرع بالحلاقة. كان صوت تقصف الشعر قويًّا تحت الشفرة، ونفر الدم في بعض الأماكن. وبعد أن حلق المعضوض الرأس مسحه بخرقةٍ مبللة بالبنزين، ثم شدَّ بطن الكلب الحليق ونطق وهو يتنفس الصعداء: «جاهز.»

فتحت زينا الصنبور فوق حوض المغسلة واندفع بورمنتال يغسل يديه، فصبَّت له زينا عليهما كحولًا من زجاجةٍ صغيرة.

– هل يمكنني أن أخرج، يا فيليب فيليبَفِتْش؟ — سألت وهي تنظر من طرف عينها بخشيةٍ إلى رأس الكلب الحليق.

– يمكنك.

اختفت زينا، واستمر بورمنتال في حركته؛ فقد غطى رأس شارك بفوطاتٍ خفيفة من شاش الضماد، وحينئذٍ ظهرت على المخدة جمجمة كلب صلعاء، لم يرها أحدٌ من قبل، وخطمٌ ملتحٍ غريب.

وهنا تحرك الكاهن، فاستقام، ثم نظر إلى رأس الكلب وقال: اللهم باركنا، هاتِ السكين.

التقط بورمنتال من الكومة البراقة على الطاولة سكينًا عريضة صغيرة وناولها للكاهن، ثم ارتدى قفازين أسودين من النوع نفسه الذي يرتديه الكاهن.

– هل هو نائم؟ — سأل فيليب فيليبَفِتْش.

– نائم.

كزَّ فيليب فيليبَفِتْش على أسنانه، واكتسبت عيناه ألقًا شائكًا حادًّا، ثم هوى بالسكين فأصاب هدفه بدقةٍ وأحدث في بطن شارك جرحًا طويلًا. انشق الجلد حالًا وانبجس منه الدم متطايرًا في مختلف الجهات. فهجم بورمنال بوحشيةٍ وطفق يضغط على الجرح بما يشبه ذرات السكر حتى جف. فنضح جبين بورمنتال بحبيباتٍ صغيرة من العرق.

وأحدث فيليب فيليبَفِتْش جرحًا ثانيًا. ثم راح الاثنان يمزقان جسم شارك بالمباضع والمقصات وبنوعٍ من الملاقط المعقوفة حتى نفرت الأنسجة الوردية والصفراء وهي تقطر ندًى دمويًّا. أدار فيليب فيليبَفِتْش سكِّينه في الجثة، ثم صرخ: «المقص!»

كان المقص يومض في يدَي المعضوض وكأنه في يدَي ساحر. تغلغل فيليب فيليبَفِتْش عميقًا، وما هي إلا بضع دورات حتى انتزع من جسم الكلب غدده التناسلية ومعها نُتَفٌ أخرى. اندفع بورمنتال، وهو مبلل تمامًا بفعل الجهد والاضطراب، إلى علبةٍ زجاجية وتناول منها غددًا تناسلية أخرى مبللة ومتدلية. وراحت تتواثب وتتداخل في أيدي البروفيسور ومساعده أوتارٌ قصيرة رطبة. لقد شرعوا يخيطون لشارك غددًا تناسلية مكان غدده. فكانت الإبر المقوَّسة تبعث طنينًا متفرقًا. ثم استقام الكاهن ودسَّ في الجرح قبضةً من شاش الضماد وأوعز: خيِّط الجلد حالًا، يا دكتور — وبعدئذٍ ألقى نظرةً على ساعة الجدار البيضاء المستديرة.

– لقد استغرقت العملية ١٤ دقيقة — قال بورمنتال وهو يكز على أسنانه، وغرس إبرته المقوسة في الجلد المتهدل. ثم اضطرب الاثنان كقاتلين مستعجلين.

– السكين! — صرخ فيليب فيليبَفِتْش.

قفزت السكين إلى يديه كأنما من تلقاء نفسها، وبعدها صار وجه فيليب فيليبَفِتْش رهيبًا؛ فقد كشَّر عن تيجان أسنانه الخزفية والذهبية. وبضربةٍ واحدة أحدث على جبين شارك هالةً حمراء. ثم رفعوا الجلد الحليق بوصفه فروة الرأس، وعرَّوا عظم الجمجمة. وصرخ فيليب فيليبَفِتْش: المثقاب!

ناوله بورمنتال مثقابًا. عضَّ فيليب فيليبَفِتْش على شفتيه وشرع يدير المثقاب ويحفر به ثقوبًا صغيرة، بين الواحد والآخر مسافة سنتمتر واحد، على محيط جمجمة شارك كلها. لم يكن حفر الثقب يستغرقه أكثر من خمس ثوان، ثم دس ذيل منشار غريب الشكل في أول ثقب وشرع ينشر مثلما ينشرون صندوقًا نسائيًّا مصنوعًا باليد. كانت الجمجمة تطلق أزيزًا ضعيفًا وتهتز، ثم خلعوا غطاء جمجمة شارك بعد زهاء ثلاث دقائق.

وعندها انكشفت قبة الدماغ رمادية مشوبة ببقعٍ حمراء وعروقٍ ضاربة إلى الزرقة، فأدخل فيليب فيليبَفِتْش مقصه في الغشاء وشقَّهُ، فانبجست نافورة دم دقيقة وخبت

بعد أن كادت تصيب عين البروفيسور، فلوثت قبعته، اندفع بورمنتال، كأنه نمر، ومعه ملقط ليوقف الدم فأوقفه. فتصبب بورمنتال عرقًا، وغدا وجهه لحيمًا وملونًا. كانت عيناه تتراكضان بين يدي البروفيسور والطبق على طاولة الأدوات. أما فيليب فيليبَفِتْش فقد أصبح مرعبًا حقًّا. وكانت تنبعث من أنفه حشرجة، فيما أسنانه مكشوفة حتى اللثة، سلخ قشرة المخ ومضى في العمق وهو يرتب أنصاف كرات المخ في الجمجمة المفتوحة. وفي هذا الوقت بدأ لون بورمنتال بالشحوب، فقبض بيدٍ واحدة على صدر شارك وقال بصوتٍ أجش: النبض ينخفض بشدة ... التفت فيليب فيليبَفِتْش إليه بوحشية، ثم جأر، ومضى أعمق، فكسر بورمنتال رأس عبوة المصل بصوتٍ مسموع وسحب السائل منها بالمحقن، ثم وخز بها شارك قرب قلبه وخزةً لئيمة.

– إنني ماضٍ إلى السرج التركي — جأر فيليب فيليبَفِتْش، وبقفازيه الداميين اللزجين أخرج المخ الرمادي الأصفر من رأس شارك، ونظر بعينيه وَرْبًا صوب خطم شارك للحظة، بينما كسر بورمنتال في الحال عبوة مصل ثانية وسحب منها السائل الأصفر بمحقنٍ طويل.

– في القلب؟ — سأل بارتباك.

– وما لك تسأل كذلك؟ — جأر البروفيسور بنبرةٍ غاضبة — سيان، فلقد مات عندك خمس مرات، احقنه! أمعقولٌ هذا؟ — وصار وجهه وقتئذٍ مثل وجه قاطع طرق ملهَم.

غرس الدكتور الإبرة في قلب الكلب بسرعةٍ ورشاقة.

– إنه حي، ولكن بالكاد — همس بارتباك.

– لا وقت للتفكير الآن أحيٌّ هو أم غير حي — حشرج فيليب فيليبَفِتْش — إنني الآن في السرج. سيموت في جميع الأحوال ... يا للشرير ... «إلى شواطئ النيل المقدسة» ... هات البَرْبَخ.[٣]

ناوله بورمنتال قارورة تترجرج في سائلها كتلة بيضاء مربوطة بخيط، ثم التقط الكتلة المترجرجة بيدٍ واحدة، وجال في خاطره: «لا مثيل له في أوروبا ... لا والله!»، بينما قص باليد الأخرى قطعة مماثلة من أعماق نصفَي الكرة المنشورين. ألقى كتلة شارك في الطبق ووضع الكتلة الجديدة في المخ ومعها الخيط، ثم تمكن، بأصابعه القصيرة التي غدت وكأنها معجزة ما جعلتها رقيقة ومرنة، من لفِّ الكتلة هناك بخيطٍ شفاف. وبعدئذٍ رمى

[٣] كلمة طبِّية تعني توابع أو ملحقات الغدة أو العضو الخاضع للجراحة. (المترجم)

من الرأس نثرات ما والملقط وأخفى المخ في قصعةٍ ضخمة وراءه، ثم استقام وسأل هذه المرة بهدوء: طبعًا. لقد مات؟

– النبض ضعيف جدًّا — أجاب بورمنتال.

أعطِه مزيدًا من الأدرينالين.

لفَّ البروفيسور المخ بالأغشية وركب غطاء الجمجمة بكل دقة، ثم غطَّاه بالجلد وجأر: خيِّطْ!

أنجز بورمنتال تخييط الرأس خلال قرابة خمس دقائق بعد أن كسر ثلاث إبر. وها قد ظهر على المخدة الملونة بالدم خَطْمُ شارك هامدًا معدوم الحياة، وجرحٌ مستدير على رأسه. وسرعان ما انهد فيليب فيليبَفِتْش نهائيًّا في الحال مثل مصاص دماء متخم، فخلع أحد قفازيه ونفض منه سحابة بودرا متعرقة، ثم مزق القفاز الآخر وألقى به إلى الأرض وضغط على زرٍّ في الجدار. ظهرت زينا في العتبة واستدارت كي لا ترى شارك داميًا. خلع الكاهن قلنسوته بيديه المغبرتين وصرخ: إليَّ بستارة حالًا. يا زينا، وأعدِّي طقم غيارات داخلية نظيفة والحمام. استند بذقنه إلى الطاولة، وفتح باثنتين من أصابعه الجفن الأيمن للكلب، وحدَّق في العين التي كان جليًّا أنها في طريقها إلى الموت، ثم نطق: هه، إلى الشيطان. إنه لم يفطس، ولكنه في جميع الأحوال سيموت.

آه، يا دكتور بورمنتال، إني آسف على هذا الكلب؛ فقد كان حنونًا رغم دهائه.

الفصل الخامس

من مفكرة الدكتور بورمنتال

دفترٌ رقيق بحجم ورقة الكتابة، مكتوبٌ كله بخط بورمنتال. وهو خطٌّ مشذب في أول صفحتين، نظيف وواضح، وفيما يلي ذلك سريع، مضطرب، وفيه تشطيب كثير.

٢٢ ديسمبر ١٩٢٤م، الإثنين
قصة المرض

كلبُ مختبرٍ. العمر قرابة عامين. ذكر. من نوع الكلاب السائبة. اللقب شارك. الشعر قليل، يتوزع هنا وهناك، داكن اللون، مبقع. الذيل بلون حليب مغلي. على خاصرته اليمنى آثار حرق، التأم تمامًا. التغذية قبل مجيئه إلى عند البروفيسور سيئة، وبعد أسبوعٍ من إقامته صار مكتنزًا للغاية. الوزن ٨ كغ (علامة تعجب). القلب، الرئتان، المعدة، الحرارة …

٢٢ ديسمبر، في الساعة ٨,٣٠ مساءً أُجريت أول عملية في أوروبا على طريقة بريوبراجينسكي. تحت التخدير بالكلوروفورم استُئصِلت خصيتا شارك وزُرِعَت بدلًا منهما خصيتا رجل وتوابعها. الغدد التناسلية كانت لرجلٍ عمره ٢٨ سنة حين توفي قبل ٤ ساعات و٤ دقائق، وحُفظت في سائلٍ فسيولوجي معقم حسب طريقة البروفيسور بريوبراجينسكي.

وعقب ذلك مباشرة تم حفر غطاء الجمجمة فوق زوائد المخ واستئصال الغدد النخامية ثم استبدالها بأخرى بشرية للرجل المذكور أعلاه.

استخدمت ٨ مكعبات من الكلوروفورم وإبرة كافور واحدة وإبرتان من الأدرينالين في القلب.

سبب العملية

القيام بتجربة بريوبراجينسكي لزرع الغدة النخامية والخصيتين معًا من أجل استجلاء مدى تعايش الغدة النخامية وتأثيرها فيما بعد على إعادة الشباب لجسم الإنسان.

أجرى العملية البروفيسور ف. ف. بريوبراجينسكي.

ساعده الدكتور إ. أ. بورمنتال.

الليلة التي أعقبت العملية

انخفاض النبض على نحوٍ خطير متكرر، توقُّع الموت، كميات ضخمة من الكافور بأمرٍ من بريوبراجينسكي.

٢٤ ديسمبر: تحسُّنٌ في الصباح، التنفس يتضاعف مرتين، الحرارة ٤٢، كافور وكوكايين تحت الجلد.

٢٥ ديسمبر: تراجعٌ من جديد، النبض مسموع بالكاد، برودة في الأطراف، البؤبؤان لا يستجيبان، أدرينالين في القلب، كافور حسب بريوبراجينسكي، محلول فسيولوجي في الوريد.

٢٦ ديسمبر: تحسن جزئي، النبض ١٨٠، التنفس ٩٢، الحرارة ٤١، كافور، التغذية بالحقن الشرجية.

٢٧ ديسمبر: النبض ١٥٢، التنفس ٥٠، الحرارة ٣٩٫٨، البؤبؤان يستجيبان، كافور تحت الجلد.

٢٨ ديسمبر: تحسُّنٌ ملحوظ. في منتصف النهار عرق غزير مفاجئ. الحرارة ٣٧. جروح العملية على حالها السابق. تغيير الضماد. استرجاع الشهية. التغذية بالسوائل.

٢٩ ديسمبر: اكتشاف تساقط الشعر فجأة عن الجبين وعلى جانبَي الجسم. استُدعي للتشاور كلٌّ من البروفيسور في قسم الأمراض الجلدية فاسيلي فاسيلفتش بوندارف ومدير معهد موسكو للتشخيص البيطري. أقرَّ الاثنان أن الحادث لم يسبق له مثيل. التشخيص بقي غامضًا. الحرارة عادية.

(كتابة بالقلم الرصاص)

مساءً ظَهر أول نباح (الساعة ٨٫١٥ دقيقة). يلفت النظر تغير حادٌّ في الطبقات الصوتية وانخفاض في النغمة. نباح بدلًا من كلمة «عاو–عاو»، بمقطعين «عو–عو»، يُذكِّر من حيث النبرة بالأنين إلى حدٍّ ما.

٣٠ ديسمبر: اتخذ تساقط الشعر شكل صلعٍ عام. الوزن أعطى نتيجة غير متوقعة؛ أي ٣٠كغ على حساب نمو (طول) العظام. الكلب راقدٌ كما كان.

٣١ ديسمبر: شهيةٌ فائقة. (في الدفتر بقعة حبر. بعد البقعة كتابة بخطٍّ سريع). في الساعة ١٢ و١٢ دقيقة نهارًا ينبح الكلب بوضوح: «أ-ب-ير.»

(فراغ في الدفتر، ثم غلطة كتابية بفعل الاضطراب، على ما يبدو):

١ ديسمبر (مشطوبة ومصححة) ١ يناير ١٩٢٥م: التُقطت له صورة في الصباح، ينبح بوضوح (آبير)، يكرر هذه الكلمة بصوتٍ عالٍ وبفرح، كما يبدو. في الساعة ٣ نهارًا (بحروفٍ كبيرة) أطلق ضحكة فأُغمي على الوصيفة زينا. مساءً نطق كلمة «أبير-فالغ»، «أبير» ٨ مرات متتالية.

(بحروفٍ مائلة مكتوبة بقلمٍ رصاص): فك البروفيسور شيفرة كلمة «أبير-فالغ» وهي تعني «غلافريبا»[1] ... شيءٌ عجيب ...

٢ يناير: صورة له وهو يضحك. نهض من الفراش ووقف على ساقيه الخلفيتين نصف ساعة بثباتٍ. إنه بطولي تقريبًا.

(في الدفتر ورقة إضافية).

كاد العلم السوفييتي يصاب بخسارةٍ فادحة.

قصة مرض البروفيسور ف. ف. بريوبراجينسكي.

في الساعة ١ و١٣ دقيقة أصيب البروفيسور بريوبراجينسكي بإغماءة عميقة. أثناء سقوطه ارتطم رأسه بساق الطاولة.

نقوع حشيش الهِرِّ.

بحضوري وزينا شتم الكلب (إذا أمكن تسميته كلبًا، بالطبع) أمَّ البروفيسور بريوبراجينسكي.

(انقطاعٌ في التسجيل).

٦ يناير: (تارة بقلم رصاص وتارة بحبرٍ بنفسجي).

اليوم بعد أن سقط ذيله لفظ بوضوحٍ تام كلمة «مشرَب البيرة.»

المصور يعمل. الشيطان يعرف ما هذا.

---

[1] غلاف-ريبا: لكلمتَي «السمكة الرئيسية» — اسم مخزن لبيع السمك، وشارك يقرؤها من النهاية، بالمقلوب. (المترجم)

إنني أضيع.

الاستقبال عند البروفيسور متوقف. بدءًا من الساعة الخامسة نهارًا يترامى من غرفة الكشف، حيث يتمشى هذا الكائن، سُبابٌ بذيءٌ سافر وكلمتان هما «زد اثنين أيضًا.»

٧ يناير: لقد نطق كلمات كثيرة جدًّا: «حوذي»، «لا يوجد أماكن»، «الجريدة المسائية»، «أفضل هدية للأطفال» وجميع كلمات السباب الموجودة في اللغة الروسية.

منظره غريب، لم يبقَ عليه من شعرٍ إلا ما على رأسه وذقنه وصدره. فيما عدا ذلك فهو أمرد، متهدل الجلد. من حيث الأعضاء التناسلية هو رجل في طور التكوين. الجمجمة كبرت كبرًا ملحوظًا، الجبين مائلٌ وضيق.

والله إنني سأُجنُّ!

فيليب فيليبَفِتْش ما يزال معتل الصحة. معظم الملاحظات أقوم بها أنا (تسجيل الصوت والتقاط الصور).

تفشَّت الشائعات في المدينة.

تبعاتٌ لا تُحصى. اليوم كان الزقاق بأسره يغص بالعُطَّل والعجائز. ما يزال المتسكعون حتى الآن يقفون تحت النوافذ. في جرائد الصباح نُشرت ملاحظة عجيبة. (الشائعات حول أحد سكان المريخ في زقاق أبوخَف لا تقوم على أساس. لقد بثها تجار سوخارفكا، وسينالون عقابًا صارمًا، يا للشيطان! أيٌّ سكان المريخ؟ إنه كابوس ...)

وأطرف من ذلك ما جاء في الجريدة «المسائية»، حيث كتبوا أنه قد ولد طفل يعزف على الكمان. وفي المكان نفسه وضعوا رسمًا يمثل كمانًا وصورتي أنا الفوتوغرافية، وكتبوا تحتها: «البروفيسور بريوبراجينسكي الذي أجرى للأم عمليةً قيصرية»، إنه شيءٌ لا يوصف ... هو ذا يقول كلمة جديدة: «الشرطي.»

تبين أن داريا بتروفنا كانت تعشقني وسرقت صورتي من ألبوم فيليب فيليبَفِتْش. وبعد أن طردتُ صحفيي الريبورتاج، تسلل أحدهم إلى المطبخ و... إلخ.

يا للأشياء التي تحدث وقت الاستقبال! تلقينا اليوم ٨٢ مكالمة هاتفية، ففصلنا الهاتف. لقد جُنَّت السيدات العاقرات، وهن يأتين ...

لجنة السكن بكامل طاقمها، وعلى رأسها شفوندر. لماذا؟ لا أحد يعرف.

٨ **يناير:** تم التشخيص أواخر المساء. إن فيليب فيليبَفِتْش، بصفته عالمًا حقيقيًّا، قد اعترف بخطئه؛ أي بأن تغيير الغدة النخامية لا يؤدي إلى إعادة الشباب، بل إلى أنسنة (تحتها ثلاثة خطوط) كاملة. وبذلك، فإن اكتشافه العجيب المذهل لن يفقد من قيمته شيئًا.

أما ذاك فقد تمشى في الشقة اليوم أول مرة. كان يضحك في الممر وهو ينظر إلى المصباح الكهربائي. وبعدئذٍ صحبنا أنا وفيليب فيليبَفِتْش إلى المكتب. إنه يقف بثباتٍ على ساقيه الخلفيتين ... (مشطوبة) على قدميه فيترك انطباعًا وكأنه رجلٌ صغير وسيئ التكوين.

راح يضحك في المكتب. ضحكته كريهة توحي بالتصنع. ثم حك قذاله وتطلَّع حوله، فسجَّلتُ كلمة جديدة نطقها بوضوح هي «برجوازيون». أخذ يشتم. كانت هذه الشتائم منتظمة، مستمرة، وعديمة المعنى تمامًا على ما يبدو؛ فهي تتسم بطابعٍ تسجيلي بعض الشيء، لكأن هذا الكائن قد سمع هذه الشتائم من قبل في مكانٍ ما ونقلها إلى دماغه آليًّا، بطريقة اللاوعي، وهو الآن يتقيؤها رُزمًا. وعلى أية حال، فأنا لست طبيبًا نفسانيًّا، فليأخذني الشيطان.

لسببٍ ما يخلق هذا السباب عند فيليبفتش انطباعًا بالغ الثقل. ثمة لحظات يخرج فيها عن سياق تتبُّعه المتزن والبارد للظواهر الجديدة، وكأنه يفقد صبره. وهكذا فجأة صرخ في لحظة السباب بعصبية: توقف!

ولم يُخلِّف ذلك أي أثر.

بعد أن تجول شارك في المكتب أفلحت الجهود المشتركة بنقله إلى غرفة الكشف. وبعدئذٍ عقدنا اجتماعًا أنا وفيليب فيليبَفِتْش. يجب أن أعترف بأنها أول مرة أشاهد فيها هذا الإنسان الواثق والخارق الذكاء مشتت الذهن. تساءل وهو يترنم حسب عادته: «وماذا سنفعل الآن؟»، ثم أجاب بنفسه حرفيًّا هكذا: «الخياطة الموسكوفية، نعم ...» «من إشبيليا إلى غرناطة»، الخيَّاطة الموسكوفية، يا عزيزي الدكتور ...» لم أفهم شيئًا، فأوضح: «أرجوك، يا إيفان أرنولدَفِتش، أن تشتري له ثيابًا داخلية وبنطلونًا وجاكتة.»

٩ **يناير:** منذ الصباح وقاموسه يغتني كل خمس دقائق (وسطيًّا) بكلمةٍ جديدة وبجُمل. لكأنها متجمدة في الوعي وها هي تذوب وتخرج. إن الكلمة التي ينطقها تستقر في الاستعمال. منذ مساء البارحة سجَّل المصور: «لا تدفش»، «سافِر»، «حلَّ عنا»، «سأريك»، «اعتراف أمريكا»، «بريموس.»

١٠ يناير: ارتدى ثيابه. سمح أن يُلبسوه القميص الداخلي راضيًا، بل وراح يضحك بمرح. رفض ارتداء السروال الداخلي الطويل وأعرب عن احتجاجه بصرخاتٍ مبحوحة: «بالدور، يا أولاد الكلب، بالدور!»

ارتدى ثيابه. الجوارب واسعة عليه.

(في الدفتر رسوم تخطيطية ما، وهي حسب جميع الدلائل تصور تحوُّل ساق الكلب إلى «رجل إنسان»).

النصف الخلفي من عظام القدم (Planta) يزداد طولًا. تمدُّد الأصابع. مخالب.

تعليمٌ منظم ومتكرر على ارتياد المرحاض. الخادمة منهكة تمامًا. غير أنه تجدر الإشارة إلى قدرة هذا الكائن على الفهم. الأمور تتحسن تمامًا.

١١ يناير: لقد تصالح نهائيًّا مع البنطلون. نطق جملةً طويلة مرحة: «هات سيكارة، يا مبسوط، بنطلونك فيه خطوط.»

شعْر رأسه ضعيف، يشبه الحرير، يسهل الظن أنه شعرٌ حقيقي لكن البقع باقية على يافوخه، اليوم سقط آخر وَبَر عن أذنيه. شهية مهولة، يأكل سمك الرنجة بمتعة.

حادثة في الخامسة نهارًا: أول مرة لم تكن الكلمات التي ينطقها الكائن معزولة عن الظواهر المحيطة، بل إنها رد فعل عليها. وتحديدًا حين أمره البروفيسور: «لا ترمِ بقايا الطعام على الأرض» — أجاب على نحوٍ مفاجئ: «انقشِر، يا بيضة القملة.»

صُعق فيليب فيليبَفِتْش، ثم تمالك نفسه وقال: إذا سمحت لنفسك مرة أخرى أن تشتمني أنا والدكتور، نلت نصيبك.

كنت أصوِّر شارك في هذه اللحظة، أراهن أنه فهِم كلمات البروفيسور.

اكتسى وجهه بظلٍّ عابس. نظر بغيظٍ كظيم من تحت جبينه المقطب، ولكنه هدأ.

هورا! إنه يفهم!

١٢ يناير: يضع يديه في جيبَي بنطلونه، نعلِّمه الإقلاع عن السباب.

صفَّر نغمًا: «آه، أيتها التفاحة الصغيرة»، يشارك في الحديث.

لا أستطيع الامتناع عن إبداء بعض الفرضيات: إلى الشياطين بتجديد الشباب مؤقتًا. ثمة شيء آخر أهم بكثير؛ فقد كشفت تجربة البروفيسور بريوبراجينسكي المدهشة عن أحد أسرار الدماغ البشري؛ إذ اتضحت منذ الآن الوظيفة الغامضة للغدة النخامية، أي الزائدة الدماغية. إنها تتحكم بالمظهر البشري. ويمكن أن تسمى هرموناتها، وهي الأهم في الجسم، بهرمونات المظهر. وانكشف ميدان جديد في العلم، حيث تم الحصول على

إنسانٍ اصطناعي دونما أية حاجة إلى أنبوبة فاوست. لقد بعث مشرط الجراح الحياةَ في نموذجٍ بشري جديد. إنك مبدع، يا بروفيسور بريوبراجينسكي! (بقعة حبر).

على أية حال؛ فقد تنحَّيت جانبًا ... وهكذا، فهو يشارك في الحديث، والمسألة، حسب افتراضي، هي على النحو التالي: إن الغدة النخامية، بعد تأقلمها، فتحت مركز الكلام في دماغ الكلب، فانصبَّت الكلمات كالسيل، أعتقد أن أمامنا دماغًا عاد إلى الحياة وانطلق، وليس دماغًا مصنوعًا من جديد. يا للبرهان العجيب على نظرية التطور! يا لأعظم سلسلة ارتقاء من الكلب إلى الكيميائي: مينديلييف! وإليكم فرضيتي الأخرى: لقد اختزن مخ شارك من حياته في المرحلة الكلبية كمية هائلة من المفاهيم. وجميع الكلمات التي بدأنا باستخدامها هي في المقام الأول كلمات شوارع كان يسمعها ويختزنها في دماغه. والآن، حين أسير في الشوارع، أنظر برعبٍ مبهم إلى الكلاب التي أُصادفها؛ فالله أعلم بما هو كامن في أدمغتها.

كان شارك يقرأ. كان يقرأ (٣ علامات تعجب). لقد أدركت ذلك بواسطة غلافريبا. كان يقرأ من النهاية تحديدًا. حتى إنني أعرف أين يكمن حل هذا اللغز. إنه في طبيعة الأعصاب البصرية عند الكلب.

ما يحدث في موسكو أمرٌ لا يدركه العقل البشري. فهناك الآن سبعة من تجار سوخارف في السجن عقابًا لهم على نشر الشائعات حول القيامة التي سببها البلاشفة. كانت داريا بتروفنا تقول، بل إنها حددت التاريخ: في ٢٨ نوفمبر ١٩٢٥م، يوم القديس الطاهر الشهيد ستيفان، سوف تهجم الأرض على مركز السماء ... وقد شرع بعض المحتالين بإلقاء محاضرات. إن الفوضى التي سببناها بهذه الغدة النخامية لا ينقذنا منها حتى الهرب من الشقة. لقد انتقلت إلى عند بريوبراجينسكي بناء على طلبه، حيث أنام في غرفة الاستقبال مع شارك. وقد تحولت غرفة الكشف إلى غرفة استقبال، تبين أن شفوندر على صواب. لجنة السكن شامتة. ما من خزانةٍ عندنا فيها أي زجاج؛ لأن شارك كان يقفز. بالكاد علَّمناه الإقلاع عن ذلك.

شيءٌ غريب يجري لفيليب فيلييَفِتْش. حين حدَّثته عن فرضياتي وأملي بتطوير شارك إلى شخصيةٍ سيكولوجية راقية جدًّا — أجاب ساخرًا: «أتعتقد؟» كانت نبرته شريرة جدًّا، أحقًّا أنني أخطأت؟ لقد نوى العجوز شيئًا ما؛ إذ بينما أكون منهمكًا بسجلِّ المرض، يعكف هو على قصة ذلك الشخص الذي استعرنا منه الغدة النخامية.

(ورقة إضافية في الدفتر)

كليم غريغوريفتش تشوغونكن، ٢٥ سنة، عازب، غير حزبي، متعاطف، حوكم ٣ مرات وبُرِّئ: في المرة الأولى بسبب عدم كفاية الأدلة، في المرة الثانية أنقذه المنبت الاجتماعي، وفي المرة الثالثة حُكِمَ بالأعمال الشاقة لمدة ١٥ سنة مع وقف التنفيذ. سرقات. المهنة عازف على البالالايكا في الحانات. قصير القامة، أخرق الشكل، تضخُّم في الطحال (كحول). سبب الموت طعنة سكين بصدره في حانة البيرة («سطوب-سغنال» عند مخفر بريوبراجينسكي).

العجوز عاكفٌ على مرض كليم لا يرفع عنه نظره. لا أفهم فيمَ القضية. غمغم شيئًا ما بصدد أنه لم يخطر له أن يفحص جثة تشوغونكن كلها في قسم التشريح الباثولوجي. ما القضية، لا أفهم ما أهمية الشخص الذي أخذنا منه الغدة النخامية؟

١٧ يناير: توقفت عن الكتابة بضعة أيام. كنت مريضًا بالأنفلونزا. خلال هذا الوقت تشكلت هيئته النهائية:

(أ) إنسانٌ كامل من حيث بناء جسمه.
(ب) الوزن حوالي خمسين كيلو.
(ج) القامة قصيرة.
(د) الرأس صغير.
(هـ) بدأ يدخن.
(و) يتناول الطعام البشري.
(ز) يرتدي ثيابه بنفسه.
(ح) يتحدث بطلاقة.

تلك هي الغدة النخامية (بقعة حبر).

بذلك أُنهي قصة المرض. أمامنا جسم جديد، يجب أن يراقب منذ البداية.

المرفقات: كتابة بالاختزال، تخطيطات طبية، صور فوتوغرافية.

التوقيع: مساعد البروفيسور ف. ف. بريوبراجينسكي.

الدكتور بورمنتال

الفصل السادس

كان مساءً شتويًّا، نهاية يناير، وقت ما قبل الظُّهر، ما قبل الاستقبال، عند أعلى الباب كانت معلَّقة ورقةٌ بيضاء مكتوب عليها بيد فيليب فيليبَفِتْش: «أمنع أكل البذور في الشقة.»

ف. بريوبراجينسكي.

(وبقلمٍ رصاص أزرق كتب بورمنتال بحروفٍ كبيرة كقطع الحلوى):

يُمنع العزف على الآلات الموسيقية من الساعة ٥ نهارًا وحتى الساعة السابعة صباحًا.

ثم بخط زينا:

«عندما تعود أخبر فيليب فيليبَفِتْش أنني لا أعرف إلى أين ذهب.
فيودَرْ قال إنه ذهب مع شفوندر.»

بخط بريوبراجينسكي:

«أمائة عام سأنتظر مصلح الزجاج؟»

بخط داريا بتروفنا (بحروفٍ طباعية):

«ذهبت زينا إلى المخزن، قالت إنها ستُحضره.»

كان كل شيءٍ يشي بحلول المساء تمامًا في غرفة الطعام بسبب المصباح ذي الظليلة الحريرية. وكان ينساب من خزانة الأواني ضوءٌ مائلٌ مكسور نصفين؛ إذ إن الزجاج المرآوي

كان قد لُصق على شكل صليب من طرفٍ إلى طرف. انحنى فيليب فيليبَفِتْش فوق الطاولة وانهمك بقراءة صفحة جريدة واسعة مفروشة. كانت دفقات الضوء تشوِّه وجهه. وكانت تتناثر من خلال أسنانه كلمات كالهديل مبتورة، متقطعة. لقد كان يقرأ خبرًا صغيرًا:

«ليس هناك أي شك في أن هذا هو ابنه غير الشرعي (كما كانوا يعبرون في المجتمع البرجوازي العفن). هكذا تتسلَّى بورجوازيتنا الزائفة! يستطيع كل واحدٍ أن يشغل سبع غرف إلى الوقت الذي يلمع فيه سيف العدالة البرَّاق فوق الشعاع الأحمر.

شف ... ر

وعلى بُعد جدارين كانوا يعزفون على البالالايكا بإصرارٍ قوي وبمهارة مُجازِفٍ، وتداخلت في رأس فيليب فيليبَفِتْش أنغام تنويعٍ ماكر لأغنية «يضيء البدر» مؤلِّفةً مع كلمات الخبر خليطًا بغيضًا.

فرغ من القراءة فتفَّ من فوق كتفه وشرع يغني آليًّا عبر أسنانه: يضـ...يء البدر ... يضـ...يء البدر ... يضـ...يء البدر ... تفو — علَّق: يا له من نغمٍ لعين!

قرع الجرس، فاندسَّ وجه زينا بين الستارتين المخمليتين.

– قولي له إنها الساعة الخامسة، فليكفَّ، وادعيه إلى هنا من فضلك.

كان فيليب فيليبَفِتْش جالسًا في كنبةٍ قرب الطاولة وعقب سيكار بُنِّي يبرز من بين أصابعه. وعند الستارة وقف رجلٌ قصير القامة، قبيح المظهر، مستندًا إلى إطار الباب. كان شعر رأسه خشنًا مثل دغلات في أرضٍ محفورة، فيما كان وبرٌ عشوائي يغطي وجهه. وكان جبينه مذهلًا بضيقه، حيث إن جلدة رأسه الكثَّة الشعر تكاد تبدأ من فوق الخصلات السوداء لحاجبيه الأشعثين.

كانت جاكتته الممزَّقة تحت إبطها الأيسر ملطخة بالقشِّ، وبنطلونه المخطط محكوكًا على الركبة اليمنى، بينما كانت اليسرى ملطخة بطلاءٍ ليلكي.

وكانت معقودة على رقبة هذا الإنسان ربطة عنق لونها سماوي فاقع، وقد ثُبِّت عليها مشبك ياقوت زائف. كان لون ربطة العنق هذه فاقعًا لدرجة أن فيليب فيليبَفِتْش كان من حين إلى آخر يُغمض عينيه المرهقتين فيرى في الظلام الدامس مِشعلًا ذا هالة زرقاء، تارة على السقف وطورًا على الجدار. وحين يفتحهما كان يظلُّ أعمى لأن الحذاءين اللَّمَّاعين وواقي الساق الأبيض كانت تبهر عينيه بحزمة ضوء تبعثها من الأرض.

«كما في واقيات الأحذية» — فكَّر فيليب فيلييَفِتْش بشعورٍ كريه، ثم تنهَّد وتنفَّس بعمق، وانهمك بسيكاره المنطفئ. راح الإنسان الواقف عند الباب ينظر بعينيه المشوبتين بالكدر إلى البروفيسور ويدخن لفافةً ينفض رمادها على صدريته البيضاء.

دقت الساعة على الجدار بقرب الزرزور الخشبي خمس دقَّات، كان ما يزال يئن في داخلها شيء ما عندما بدأ يتحدث مع فيليب فيلييَفِتْش.

– أظن أنني رجوتك مرتين ألا تنام على السقيفة في المطبخ ولا سيما في النهار؟

أطلق الإنسان سعالًا مبحوحًا، تمامًا كمن غصَّ بعظمٍ ثم أجاب: الهواء في المطبخ أطيب.

كان صوته غريبًا، أصمَّ ورنانًا في الوقت نفسه وكأنه يصدر من برميلٍ صغير.

هز فيليب فيلييَفِتْش رأسه وسأله: من أين جاءتك هذه القذارة؟ إنني أتكلم عن ربطة العنق.

تابع الإنسان الصغير حركة الإصبع بعينيه وأمالهما فوق شفته المقلوبة، ثم نظر بشغفٍ إلى ربطة العنق — رد قائلًا: بأي معنى «قذارة»؟ إنها ربطة عنق رائعة. لقد أهدتها لي داريا بتروفنا.

– داريا بتروفنا أهدتك نجاسة من قبيل هذا الحذاء. ما هذا الهراء اللمَّاع؟

من أين؟ ما الذي طلبته منك؟ أن تشتري حذاء لا-ئ-قًا، فما هذا؟ أيعقل أن يكون هذا من اختيار الدكتور بورمنتال؟

– أنا أمرته أن يشتريه لمَّاعًا. وهل أنا أسوأ من الناس؟ اذهب إلى شارع كوزنتيسكي ترَ الجميع في أحذيةٍ لماعة.

هز فيليب فيليبتش رأسه وقال قاطعًا: انتهى النوم على السقيفة. مفهوم؟ يا للوقاحة! أقول إنك تضايقنا. فهناك نساء.

غدَا وجه الإنسان قاتمًا وبرزت شفتاه إلى الأمام.

– أما نساء! يا لهن من سيدات! ما هن إلا خادمات عاديات، ويتباهين كأنهن زوجات وزراء. كل هذا نميمة من زينكا.

نظر فيليب فيلييَفِتْش إليه بصرامة: إياك أن تسمي زينا باسم زينكا، مفهوم؟

صمت.

– إنني أسألك: مفهوم؟

– مفهوم.

– ارمِ هذه القذارة من عنقك. و... و... وانظر إلى نفسك في المرآة، أيَّ شيء تشبه؟ إنك فرجة كاملة، لا ترمِ الأعقاب على الأرض. إنني أرجوك للمرة المائة. إياك أن أسمع منك أي كلمة سباب في الشقة. لا تبصق! تلك هي المبصقة. ولتحافظ على نظافة المبولة ... كُفَّ عن جميع الأحاديث مع زينا؛ فهي تشكو من أنك تتربص بها في العتمة. حذارِ! ثم مَن الذي ردَّ على المريض قائلًا: «الكلب يعرفه!»؟ حقًّا، أين أنت، هل في حانة؟

– إنك، يا بابا، تُضيِّق عليَّ كثيرًا — قال الإنسان فجأة وبصوتٍ محصور باكٍ. احمرَّ فيليب فيليبَفِتْش وشعَّت نظارتاه: من هذا الـ «بابا» هنا؟ ما هذه السفاهات؟ إياك أن أسمع هذه الكلمة بعد الآن! نادني باسمي وباسم أبي!

ما لك تمنعني ... تارة لا تبصق، وتارة لا تدخن، ولا تذهب إلى المكان الفلاني ... فما هذا، بالفعل؟ كما في حافلة الترام عينًا. ما لك لا تتيح لي أن أعيش؟! وبخصوص الـ «بابا» فذلك عبث. هل رجوتك، يا ترى، أن تُجري لي عملية؟ — نبح الإنسان بانزعاج — أمرٌ جميل! اصطادوا حيوانًا فشقوا رأسه بالسكين، ثم ها هم يتقززون الآن. أعتقد أنني لم أعطِ موافقتي على العملية. شأني (رفع الإنسان عينيه إلى السقف كمن يستذكر صيغةً ما). شأني شأن أهلي أيضًا. ربما يكون من حقي أن أقيم دعوى.

تكوَّرت عينا فيليب فيليبَفِتْش تمامًا، وسقط السيكار من يديه. «أما نموذج» — مرقت في رأسه هذه العبارة.

– حضرتك مستاء من تحويلك إلى إنسان؟ — سأله وهو يزمُّ عينيه — لعلك تفضِّل أن تركض ثانيةً من بالوعة إلى بالوعة؟ وأن تتجمد في الثغرات؟ لكن، لو كنت أعرف ...

– ما لك لا تكف عن اللوم: بالوعة، بالوعة! لقد كنت أبحث عن لقمة العيش، وماذا لو أنني متُّ عندك تحت السكين؟ بمَ تجيب على ذلك، يا رفيق؟

– قل فيليب فيليبَفِتْش! — هتف فيليب فيليبَفِتْش غاضبًا — فأنا لست رفيقًا لك! شيء غريب! «يا للفظاعة، يا للفظاعة!» قال في نفسه.

– أوه، طبعًا، وكيف لا ... — قال الإنسان ساخرًا، وغيَّر موضع قدمه ظافرًا — إننا نفهمكم، يا سيدي. أيُّ رفاق نحن لكم! من أين! فنحن لم نتعلم في الجامعات، ولم نسكن في شققٍ مكونة من ١٥ غرفة وحمامات. غير أنه حان الوقت الآن لإيقاف ذلك، فلكل إنسان في الوقت الحالي حقه ...

كان الشحوب يعلو وجه فيليب فيليبَفِتْش وهو ينصت إلى أقوال الإنسان الذي قطع خطبته ومشى إلى المنفضة على نحوٍ استعراضي وبيده لفافته الممضوغة العقب. أطال إطفاء

عقب اللفافة في المنفضة بتعبيرٍ ينطق بوضوح: «هاك! هاك!»، وبعد أن أطفأ اللفافة أطلق صريفًا بأسنانه فجأة وهو يمشي، ثم دسَّ أنفه تحت إبطه.

– التقطِ البراغيث بأصابعك! بالأصابع! — صرخ فيليب فيليبَفِتْش بغضبٍ عنيف — ثم إنني لا أفهم من أين تأتي بها؟

– ماذا، وهل أنا الذي أربِّيها؟ — غضب الإنسان — يبدو أن البراغيث تحبُّني — وهنا دسَّ أصابعه في بطانة كمِّه وألقى في الهواء قطعة من قطنٍ حمراء خفيفة.

التفت فيليب فيليبَفِتْش بناظريه إلى أكاليل الورد المجسمة على السقف، ونقر على الطاولة بأصابعه. قتل الإنسان برغوثًا ثم ابتعد وجلس على الكرسي. وعندئذٍ دلَّى يديه وبسط كفيه على جنبيه وتهدلت كتفاه. ومالت عيناه إلى مربعاتٍ باركيت[1] الغرفة. ثم راح يتأمل حذاءه، فسبب له ذلك سرورًا كبيرًا. نظر فيليب فيليبَفِتْش إلى النحاستين اللتين كانتا تلمعان هناك على رأسَي حذاء الإنسان المستديرتين ثم زمَّ عينيه وقال: بأية قضية أردت أن تخبرني أيضًا؟

– أية قضية! قضية بسيطة، أحتاج إلى وثيقة، يا فيليب فيليبَفِتْش.

بوغت فيليب فيليبَفِتْش قليلًا.

– هم ... يا للشيطان! وثيقة! حقًّا ... كخم ... وربما يمكن بشكلٍ ما أن ... — رنَّ صوته بارتباكٍ وضجر.

– لطفًا — أجاب الإنسان بثقة — وكيف بدون وثيقة؟ هنا اعذرني. أنت تعرف أنه لا يجوز للإنسان أن يكون موجودًا بدون وثائق. أولًا، لجنة السكن ...

– وما علاقة لجنة السكن هنا؟

– كيف ما علاقتها؟ يقابلونني فيسألون: متى تحصل على الإقامة، أيها المبجَّل؟

– آخ، يا إلهي — هتف فيليب فيليبَفِتْش ضجرًا — يقابلونه، يسألونه ... أتصوَّر ما تقوله لهم. إلا أنني منعتك من التسكع على الدَّرج.

– وهل أنا محكومٌ بالأعمال الشاقة؟ — تعجَّب الإنسان. وكان وعيه بحقانيته يتَّقد حتى في فصِّ الياقوت. كيف تقول «التسكع»؟! كلماتك مزعجة للغاية. إنني أتمشى مثل جميع الناس.

وأخذ يجرِّر قدميه اللَّماعتين عبر باركيت الغرفة.

[1] قطعٌ من الخشب، بدلًا من البلاط، تغطَّى بها أرض البيوت في روسيا تفاديًا للبرد. (المترجم)

صمت فيليب فيليبَفِتْش، ومال بعينيه جانبًا، وفكر: «يجب أن أتمالك نفسي، على كل حال.» ثم دنا من خزانة الأواني وتجرَّع كأسًا من الماء دفعة واحدة.

– ممتاز، يا سيدي — قال على نحوٍ أهدأ — القضية ليست في الكلمات، إذن، فماذا تقول لجنتك السكنية الرائعة هذه؟

– وماذا عليها أن تقول ... لكن من العبث أن تسبها بقولك «الرائعة». إنها تدافع عن المصالح.

– مصالح مَن، اسمح لي أن أستطلع؟

– معروف مصالح مَن؛ مصالح العنصر الكادح.

حملق فيليب فيليبَفِتْش وسأل: ولماذا أنت كادح؟

– معلوم، فأنا لست من رجال النيب.[٢]

– حسنًا، إذن، وما الذي تريده من دفاعها عن مصلحتك الثورية.

– معلوم ماذا أريد، أريد أن تسجل إقامتي، يقولون: أين رأيتم إنسانًا يعيش في موسكو من غير إقامة. هذا واحد. أما الشيء الأساسي فهو بطاقة العمل؛ فأنا لا أرغب في أن أكون هاربًا، ثم أعود مرةً أخرى إلى الاتحاد والمكتب ...[٣]

– اسمح لي أن أعرف، على أي أساس سأسجلك؟ على أساس غطاء الطاولة هذا، أم بجواز سفري؟ وفي كل الأحوال يجب أن تأخذ وضعي بعين الاعتبار! لا تنسَ أنني ... إ...حم ... فأنت، كما يقال، كائنٌ مِخبري ظهر فجأة — كان فيليب فيليبَفِتْش يتكلم بثقةٍ تتناقص.

صمت الإنسان ظافرًا.

– حسنًا، يا سيد. فما المطلوب، أخيرًا، لتسجيل إقامتك، وبالجملة لتنظيم كل شيء حسب مخطط لجنتك السكنية هذه؟ فأنت لا اسم لك ولا لقب.

– إنك لست على حقٍّ هنا. أستطيع بكامل الاطمئنان أن أختار اسمًا.

– وكيف تحب أن تُسمَّى؟

عدل الإنسان ربطة عنقه وأجاب: بوليغراف بوليغرافوفتش.

– لا تتحامق — ردَّ فيليب فيليبَفِتْش متجهِّمًا — إنني أكلمك جادًّا.

---

[٢] النيب N.E.P هي الأحرف الأولى من كلمات «السياسة الاقتصادية الجديدة» التي أعلنها لينن سنة ١٩٢١م وأتاحت فرصة للقطاع الخاص. (المترجم)

[٣] المقصود هنا هو اتحاد العمال ومكتب العمل لتشغيل العاطلين أو الهاربين. (المترجم)

عوج الإنسان شاربيه بضحكةٍ خبيثة: إنني لا أفهم — قال بمرحٍ وتضمين — ممنوع عليَّ أن أتلفظ ببذاءاتٍ. ممنوع أن أبصق، ثم أسمع منك إلا «أحمق، أحمق». يبدو أنه لا يحق إلا للبروفيسورات أن يسبُّوا (رِ–سِ– فِ–سِ–رْ).[٤]

احتقن وجه فيليب فيليبَفِتْش بالدم، فكسر الكأس وهو يملؤها. ثم ارتوى من كأسٍ أخرى وفكَّر: «بعد قليلٍ سيصير يعلمني وسيكون على حق. إنني لا أستطيع أن أتمالك نفسي.»

استدار على الكرسي، ثم أحنى قامته باحترامٍ مفرط ونطق بثباتٍ حديدي: اع ذ رْ–ني. إن أعصابي مريضة. لقد بدا لي اسمك غريبًا. حبذا لو أعرف أين نبشْتَ لنفسك هذا الاسم؟

– نصحتني به لجنة السكن. لقد بحثوا في التقويم وقالوا: أيَّ اسمٍ تريد؟ فاخترته.

– لا يمكن أن يكون في أي تقويمٍ شيء من هذا القبيل.

– عجيبٌ للغاية — ضحك الإنسان ساخرًا — ما دام التقويم معلقًا عندك في غرفة الكشف.

ودون أن ينهض ضغط فيليب فيليبَفِتْش على زرٍّ في الجدار، وردًّا على الجرس جاءت زينا.

– هاتي التقويم من غرفة الكشف.

انقضت فترة صمت. وعندما عادت زينا بالتقويم — سألها فيليب فيليبَفِتْش: أين؟

– يحتفلون بعيده يوم ٤ مارس.

– أريني ... هم ... يا للشيطان ... ألقيه في النار، يا زينا، حالًا.

جحظت عينا زينا المذعورة وخرجت بالتقويم، فهز الإنسان رأسه مؤنِّبًا.

– أتسمح لي بمعرفة اللقب؟

– إنني موافقٌ على قبول لقبي بالوراثة.

– كيف؟ بالوراثة؟ بالضبط؟

– شاركف.

---

[٤] الأحرف الأولى من الاسم الرسمي لروسيا السوفيتية: جمهورية روسيا السوفيتية الفدرالية الاشتراكية (كأن تقول: جِ–رِ–سِ–فِ–ا). (المترجم)

وقف رئيس لجنة السكن شفوندر بسترته الجلدية في المكتب أمام الطاولة. كان الدكتور بورمنتال جالسًا على الكنبة. وكان على خديه المحمرَّين من الصقيع (فقد عاد لتوه) تعبيرٌ فيه من الارتباك مقدار ما يعانيه فيليب فيليبَفِتْش الجالس بجانبه.

– كيف نكتب؟ — سأل بنفاد صبر.

– وماذا — تكلم شفوندر — ليست قضية صعبة. اكتب وثيقة، أيها المواطن البروفيسور. إن فلانًا الفلاني، حاملها، هو بالفعل بوليغراف بوليغرافوفتش، هم … المولود، مثلًا، في شقتكم.

تململ بورمنتال في كنبته محتارًا. واهتز شارب فيليب فيليبَفِتْش.

– هم … يا للشيطان! لا يمكنك حتى أن تتخيل شيئًا أكثر حماقة. لا وُلِد ولا يحزنون، كل ما في الأمر … يعني، بكلمةٍ واحدة …

– هذا شأنك — نطق شفوندر بشماتةٍ هادئة — وُلِد أم لم يولَد … إنك بالجملة وعلى العموم أنت الذي أجريت التجربة، يا بروفيسور! أنت الذي صنعت المواطن شاركف.

– هذا كل ما في الأمر — نبح شاركف من مكانه قرب خزانة الكتب؛ فقد كان يتأمل ربطة عنقه المنعكسة في أعماق المرآة.

– أرجوك كل الرجاء — ردَّ فيليب فيليبَفِتْش بقسوة، ألَّا تتدخل في الحديث؛ إذ عبثًا تبسط المسألة وما هي ببسيطةٍ على الإطلاق.

– كيف لي ألا أتدخل — غمغم شارِكف حرِدًا.

فسانده شفوندر دونما إبطاء: اعذرني، يا بروفيسور؛ فالمواطن شاركف محقٌّ تمامًا، ومن حقه أن يشارك في مناقشة مصيره الشخصي وخاصة بمقدار ما أن الأمر يمس وثائقه؛ فالوثيقة أهم شيء في الوجود.

وفي هذه اللحظة قطع الحديث رنين يصم الآذان. قال فيليب فيليبَفِتْش في السماعة: «نعم …»، ثم احمر وصرخ: أرجوكم لا تشغلوني بالتُّرَّهات. ما حاجتكم؟

وبقوةٍ أعاد السماعة إلى مكانها.

انتشرت في وجه شفوندر فرحة زرقاء.

ثم صرخ فيليب فيليبَفِتْش محمرًّا: وبكلمةٍ واحدة، فلنُنْهِ هذا الأمر.

شق ورقةً من دفترٍ صغير، وبسرعةٍ كتب بضع كلمات، ثم قرأها عليهما غاضبًا: «وبهذا أشهد …»، الشيطان يعرف ما هذا، هم … «إن حامل هذه الوثيقة إنسانٌ أسفرت عنه التجربة المخبرية بعد عمليةٍ في الدماغ، وهو يحتاج إلى وثائق …»، يا للشيطان! لكنني بالجملة ضد استلام هذه الوثائق البلهاء. التوقيع: «البروفيسور بريوبراجينسكي.»

– أمرٌ في غاية الغرابة، يا بروفيسور — انزعج شفوندر — كيف تصف الوثائق بالبلهاء؟ إنني لا أستطيع السماح بالإقامة لساكن بلا وثائق، بل ولم تُدْرِجه الشرطة في السجلات العسكرية، فماذا لو اندلعت الحرب فجأة مع الوحوش الإمبرياليين؟

– إنني لن أذهب من أجل الحرب إلى أي مكان! نبح شاركف فجأة بعبوسٍ باتجاه الخزانة.

ارتبك شفوندر، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه وأشار على شاركف باحترام: إنك، أيها المواطن شاركف، تقول كلامًا بأعلى درجةٍ من اللاوعي؛ إذ لا بد من إدراجك في السجلات العسكرية.

– أدرجوني في السجلات. أما أن أحارب — فمنام تشوف قفاه — أجاب شاركف ممتعضًا وهو يعدِّل فراشة عنقه.

جاء دور شفوندر في الارتباك، وتبادل بريوبراجينسكي النظر مع بورمنتال بغيظٍ وضجر كمن يقول: «انظر إلى هذه الموعظة الأخلاقية.»

هز بورمنتال رأسه على نحو كثير الدلالات.

– إنني جرحت جرحًا صعبًا أثناء العملية — عوى شاركف عابسًا — شُفْ كيف سلخوني — وأشار إلى رأسه. كانت ندبة جراحية طرية جدًّا تمتد على عرض جبينه.

– هل أنت فوضوي-فرديٌّ؟ — سأله شفوندر وهو يرفع حاجبيه عاليًا — حسنًا، يا سيدي، هذا ليس مهمًّا الآن — أجاب شفوندر متعجبًا — المسألة هي أننا سنرسل شهادة البروفيسور إلى الشرطة ليعطوك وثيقة.

– اسمع، إ... — فجأة قاطعه فيليب فيليبَفِتْش، وقد كان واضحًا أن ثمة فكرة تعذبه — أليس لديكم في العمارة غرفة غير مسكونة؟ إنني موافقٌ على شرائها.

ظهرت شرارات صفراء في عينَي شفوندر العسليتين.

– كلا، يا بروفيسور، ببالغ الأسف، ولا يُنتظر.

زم فيليب فيليبَفِتْش شفتيه ولم يقل شيئًا. ورنَّ جرس الهاتف من جديد كالمنادي. ظل فيليب فيليبَفِتْش صامتًا، ودون أن يطرح سؤالًا، ألقى السماعة عن حاملها بقوةٍ جعلتها تترنح قليلًا، ثم تتدلى معلَّقة بسلكٍ أزرق. ارتجف الجميع. «لقد فقد العجوز أعصابه» — فكر بورمنتال. وكانت عينا شفوندر تلمعان فانحنى وخرج. تبعه شاركف، وراح حذاؤه يبعث صريرًا.

بقي البروفيسور على انفرادٍ مع بورمنتال. وبعد صمتٍ قصير نفض فيليب فيليبَفِتْش رأسه قليلًا وتكلم: شيءٌ فظيع، أقسم بشرفي؛ ألا ترى؟ أقسم لك، يا عزيزي الدكتور، أنني

قد أُنهِكت خلال هذين الأسبوعين أكثر مما أنهكت خلال ١٤ سنة الأخيرة! يا له من نموذج! سأقص عليك ...

ترامى تصدُّع زجاج في مكانٍ بعيد، ثم انبعث زعيق نسائي مبحوح وهمد في الحال. وفي الممر ارتطمت قوة خفيَّة بورق الجدران متجهة إلى غرفة الكشف، وهناك اصطدم بشيءٍ ما وطار مرتدًّا بلمح البصر. انصفقت الأبواب وتردد في المطبخ صراخٌ خفيض أطلقته داريا بتروفنا، ثم عوى شارِكف.

– يا إلهي، ثمة شيء آخر أيضًا! — صرخ فيليب فيليبَفِتْش واندفع صوب الباب.

– إنه القط — فطن بورمنتال وقفز في أعقابه. ثم ركضا عبر الممر باتجاه غرفة المدخل فاقتحماها، ومن هناك انعطفا عبر الممر إلى المرحاض وغرفة الحمام، فقفزت زينا من المطبخ واصطدمت بفيليب فيليبَفِتْش.

– كم مرة أمرتكم بأن لا أرى قططًا هنا — صرخ فيليب فيليبَفِتْش في حالة سُعار — أين هو؟ هدِّئ المرضى في غرفة الاستقبال، يا إيفان أرنولدَفِتش، كُرمى لله!

– إنه في الحمام، الشيطان اللعين جالسٌ في الحمام — صرخت زينا لاهثة.

ألقى فيليب فيليبَفِتْش بثقله على باب الحمام، ولكنه لم ينفتح.

– فلتفتح في هذه اللحظة فورًا!

وكان الجواب في الحمام المقفل أن قفز شيء ما يتسلق الجدران فانقلبت الطشوت، وجأر شاركف بصوتٍ وحشي أصم خلف الباب: سأقتلك في مكانك ...

قرقر الماء في الأنابيب وسأل، فالتصق فيليب فيليبَفِتْش بالباب وشرع يخلعه. ظهرت داريا بتروفنا على عتبة المطبخ ووجهها مشوَّهٌ ينضح بالعرق. أما الزجاج العالي المتصل بسقف الحمام والمطل على المطبخ فقد تصدع صدوعًا متداخلة وسقطت منه قطعتان تبعهما قط ضخم الجسم مخطط كالنمر، وفي رقبته فراشة عنق زرقاء كشرطي قيصري. لقد سقط فوق الطاولة في طبقٍ طويل فكسره نصفين وارتمى على الأرض، ثم استدار على ثلاث أرجل ولوَّح باليمنى كأنه يرقص، وانسل في الحال عبر شقٍّ ضيق إلى السلم الخلفي. فاتسع الشق وحلَّ محلَّ القط وجه عجوز رثة ترتدي منديلًا. وتبين أن تنورة العجوز المنقَّطة بحبَّاتٍ حمص بيضاء كانت في المطبخ. مسحت العجوز فمها الغائر بسبابتها وإبهامها وألقت من عينيها المنتفختين الشائكتين نظرة على المطبخ ثم نطقت بفضول: آه، يا إلهي المسيح!

كان فيليب فيليبَفِتْش شاحبًا حين عبَر المطبخ وسأل العجوز بلهجةٍ غاضبة: ماذا تريدين؟

– أتمنى أن أتفرَّج على الكلب الناطق — أجابت العجوز بمماراةٍ ورسمت إشارة الصليب.

ازداد فيليب فيليبَفِتْش شحوبًا ودنا من العجوز فلاصقها وهمس لها بصوتٍ لاهث: انصرفي من المطبخ في هذه الثانية حالًا!

تراجعت العجوز نحو الباب ونطقت بتذمر: يا لها من جلافةٍ فظيعة، يا سيدي البروفيسور.

– انصرفي، أقول لك! — كرَّر فيليب فيليبَفِتْش، وغدت عيناه دائريَّتين كعينَي بومة، وصفق الباب بيده خلف العجوز — داريا بتروفنا. لقد سبق أن رجوتك!

– فيليب فيليبَفِتْش — ردَّت داريا بترفنا بيأسٍ وهي تضم قبضتَي يديها العاريتين — ماذا أفعل؟ الناس يتدافعون عند الباب أيامًا بطولها، ولا حيلة لي في ذلك.

كان الماء في الحمام يطلق خريرًا مبحوحًا، ومنذرًا، ولكن الأصوات لم تعد مسموعة. دخل الدكتور بورمنتال.

– أتوسل إليك، يا إيفان أرنولدَفِتش ... هم ... كم مراجعًا هناك؟

– أحد عشر — أجاب بورمنتال.

– أطلِقهم جميعًا، فلن أستقبل اليوم أحدًا — ثم دق فيليب فيليبَفِتْش الباب بإصبعه وصرخ: تفضل واخرج في هذه الدقيقة حالًا! لماذا! أقفلت الباب عليك؟

– عاو-عاو! — رد شاركف بصوتٍ شاكٍ وضجِر.

– يا للشيطان! ... إنني لا أسمع، أغلق الماء.

– عاو-عاو!

هيا أغلِق الماء! ما الذي فعله. إنني لا أفهم ... — زعق فيليب فيليبَفِتْش وهو يوشك أن يفقد أعصابه.

فتحت زينا وداريا بتروفنا الباب وأطلَّتا من المطبخ، فدقَّ فيليب فيليبَفِتْش الباب بقبضته مرة ثانية.

– هو ذا! صاحت داريا بتروفنا من المطبخ.

اندفع فيليب فيليبَفِتْش إلى هناك. كان وجه بوليغراف بوليغرافوفتش مطلًّا على المطبخ عبر النافذة المكسورة لصق السقف. كان وجهه ممعَّرًا، مشوهًا، وعيناه تدمعان، فيما كان جرح على امتداد أنفه الملتهب بدمٍّ طازج.

– هل جُنِنْتَ؟ — سأله فيليب فيليبَفِتْش — لماذا لا تخرج؟

التفت شاركف مرعوبًا وضجرًا، ثم أجاب: لقد أُقفل الباب خلفي.

– افتح القفل. ماذا، ألم يسبق لك أن رأيت قفلًا أبدًا؟

– لكنه لا ينفتح هذا اللعين؟ — أجاب بوليغراف بخوف.

– يا ناس! لقد أُقفل مزلاج الأمان! — صاحت زينا وطوَّحت بيديها.

– هناك يوجد زر! — صرخ فيليب فيليبَفِتْش محاولًا أن يعلو صوته على خرير الماء — اضغط عليه إلى تحت ... نحو الأسفل، اضغط، نحو الأسفل!

غاب شاركف ثم عاد ليُطلَّ من الكوَّة.

– لا أرى شيئًا، نبح عبر النافذة مرعوبًا.

– أشعِل المصباح الكهربائي! لقد طار صوابه!

– كسره القط اللعين — رد شاركف — فحاولت القبض على رجلَي ذلك السافل، لكنني أدرت مفتاح الصنبور، والآن لا أستطيع أن أجده.

طوَّح الثلاثة بأيديهم في الهواء وجمدوا على هذه الحال.

وبعد قرابة خمس دقائق كان بورمنتال وزينا وداريا بتروفنا يجلسون متقاربين فوق سجادة مبللة ملفوفة على شكل أنبوب عند أسفل الباب وراحوا يدفعونها بمؤخراتهم لسد شق تحت الباب، فيما كان البواب فيودَرْ يحمل شمعة عرس داريا بتروفنا مشتعلة ويصعد السلم الخشبي إلى نافذة الإنصات. فلاحت مؤخرته ذات المربعات الرمادية الكبيرة في الهواء، ثم غابت عبر الفتحة.

– دو ... عاو ... عاو! راح شاركف يصرخ مع خرير الماء.

ترامى صوت فيودَرْ: لا بد أن نفتح، يا فيليب فيليبَفِتْش، خلِّ الماء يتدفق، سنجرفه من الحمام.

– افتح! — صرخ فيليب فيليبَفِتْش غاضبًا.

نهض الثلاثة عن السجادة وانفتح باب الحمام فتدفقت في الحال موجة ماء نحو الممر. وهنا تشعبت إلى ثلاث شعب: إلى الأمام نحو المرحاض المقابل، وإلى اليمين نحو المطبخ، ثم إلى اليسار نحو فسحة المدخل. راحت زينا تقفز في الماء وصفقت الباب. ولسببٍ ما خرج فيودَرْ مبتسمًا بينما كان الماء يغمر كاحليه. كان مبللًا كله وكأنه في مشمَّع. أوضح قائلًا: سددت الصنبور بصعوبةٍ لأن ضغط الماء كبير.

– أين هو؟ — سأل فيليب فيليبَفِتْش ورفع إحدى رجليه وهو يلعن.

– يخاف أن يخرج — شرح فيودَرْ وهو يضحك ساخرًا بغباء.

– هل ستضربني، يا بابا؟ ترامى صوت شاركف باكيًا من الحمام.

– أحمق! رد فيليب فيليبَفِتْش بإيجاز.

كانت زينا وداريا بتروفنا ترتدي كلٌّ منهما تنورة مرفوعة تكشف عن ساقين عاريتين حتى الركبتين، فيما كان شاركف والبواب حافيين وقد ثنى كلٌّ منهما فردتَي بنطلونه، والجميع يمسحون أرض المطبخ بخِرقٍ مبتلة ويعصرونها في سطولٍ وسخة وفي حوض المغسلة. وكان الموقد المهجور يُصَفِّر، والماء ينساب عبر الباب نحو السلم الرنان وينحدر مباشرة إلى الفراغ ليسقط في القبو.

وقف بورمنتال مشرئبًّا على أصابع قدميه في نُقرة ماء عميقة وسط فسحة المدخل الخشبية وراح يتحدث من خلال الباب المشقوق قليلًا والمربوط بسلسلةٍ إلى الجدار.

– البروفيسور موعوك؛ لذلك يُلغى الاستقبال اليوم. ابتعدوا عن الباب من فضلكم. لقد انفجر أنبوب الماء عندنا.

– ومتى الاستقبال؟ — ألح صوتٌ من خلف الباب — ليته يستقبلني دقيقة واحدة ...

– لا أستطيع — وغيَّر بورمنتال وقفته من مشط قدميه إلى كعبيه — إن البروفيسور مستلقٍ، وقد انفجر أنبوب الماء. تفضل غدًا. زينا! أيتها الغالية! امسحوا من هنا، وإلا سال الماء نحو السلم الرئيسي.

– لم تعُد الخِرَقُ تمتصُّ.

– الآن سنجرف الماء بالطاسات — رد فيودَرْ — الآن.

تعاقبت الأجراس واحدًا تلو الآخر. وكان بورمنتال قد وقف بنعليه في الماء.

– ومتى العملية؟ أصرَّ الصوت وحاول أن يندس في شقِّ الباب.

– لقد انفجر أنبوب الماء ...

– لكنت اجتزت الماء بواقيات الأحذية ...

تراءت خلف الباب خيالات ضاربة إلى الزرقة.

– ممنوع. أرجوكم.

– لكنني مسجَّل.

– غدًا. إنها كارثةٌ بسبب أنبوب الماء.

كان فيودَرْ عند رِجلي الدكتور يخوض في بحيرةٍ ويغرف الماء بالطاسات، فيما ابتكر شاركف المفعم بالخدوش طريقةً جديدة. فقد التف بخرقةٍ ضخمة على شكل أنبوب ثم استلقى على بطنه في الماء، وراح يدفعه من فسحة المدخل ليعيده إلى المرحاض من جديد.

– ما بك، أيها الجني، تنشر الماء في الشقة كلها — غضبت داريا بتروفنا — هيا، صبَّ الماء في حوض المغسلة.

– ماذا في حوض المغسلة — أجاب شاركف وهو يغرف الماء العكر بيديه — سيتسرب الماء إلى السلم الرئيسي.

وتحرك مقعد من الممر مبتعدًا وهو يبعث صريفًا حادًّا، بينما كان فيليب فيليبَفِتْش بجواربه الزرقاء المخطَّطة يوازن جلسته عليه.

– إيفان أرنولدَفِتش، دعك من الإجابة، واذهب إلى غرفة النوم، سأعطيك حذاء.

– لا بأس، يا فيليب فيليبَفِتْش، هذه أمور تافهة.

– البس الواقيات.

– لا بأس. إن قدميَّ مبللتان على كل حال.

– آه، يا إلهي! انزعج فيليب فيليبَفِتْش.

– كم هو مؤذٍ هذا الحيوان! — رد شاركف فجأة واندفع مقرفصًا وفي يده طنجرة طبخ الحساء.

صفَق بورمنتال الباب، ولم يتمالك نفسه فضحك، وانتفخ منخرا فيليب فيليبَفِتْش وأشعت نظارتاه: عمَّن تتكلم؟ — توجه بالسؤال إلى شاركف بتعالٍ — اسمح لي أن أعرف.

– أتكلم عن القط. يا له من وغد! — أجاب شاركف وهو يجوس بعينيه.

– هل تعرف، يا شاركف — تنهَّد فيليب فيليبَفِتْش وأجاب — إنني حقًّا لم أرَ أوقح منك.

قهقه بورمنتال.

– إنك وقحٌ حقيقي — تابع فيليب فيليبَفِتْش — كيف تجرؤ على قول هذا؟ أنت الذي سببت كل ذلك ثم تسمح لنفسك ... أوه، لا! الشيطان يعرف ما هذا!

– قل لي من فضلك، يا شاركف — تكلم بورمنتال — كم من الوقت ستستمر في مطاردة القطط؟ اخجل! فهذا قلة أدب! أيها الهمجي!

– أي همجي أنا — رد شاركف مقطِّبًا — لست همجيًّا مطلقًا. لا يمكن أن أتحمَّله في الشقة. لا تراه إلا وهو يبحث عن شيءٍ يسرقه؛ فقد التهم اللحم المطحون عند داريا. وأنا أردت تأديبه.

– يجب تأديبك أنت! — أجاب فيليب فيليبَفِتْش — فلتنظر إلى وجهك في المرآة.

– كاد يحرمني من عيني — رد شاركف بتجهمٍ وهو يلمس عينه بيده المبللة الوسخة.

وعندما ظهر شيءٌ من الجفاف على الأرض الخشبية، السوداء بفعل الرطوبة، غطَّى بخار الحمام جميع المرايا وانقطع رنين الأجراس. كان فيليب فيليبَفِتْش يقف في فسحة المدخل مرتديًا حذاءً جلديًّا أحمر.

– هاك، يا فيودَرْ.

– أشكرك بالغ الشكر.

– غيِّر ثيابك حالًا، ثم اسمع: اشرب فودكا من عند داريا بتروفنا.

– جزيل شكري — تلكأ فيودَرْ ثم قال: لا يكفي، يا فيليب فيليبَفِتْش، أعتذر، فإنه عيبٌ عليَّ بالفعل. ما هذا إلا ثمن الزجاج في الشقة السابعة ... فالمواطن شاركف كان يرمي الحجارة ...

– على القط؟ — سأل فيليب فيليبَفِتْش مُرْبَدًّا مثل غيمة.

– لا بل صاحب الشقة، وقد هدَّد بتقديم شكوى إلى المحكمة.

– يا للشيطان!

– إن شاركف عانق خادمته فراح يطرده ... ثم تخاصما.

– كُرمى لله، أخبرني دائمًا بهذه الأشياء في الحال ... كم المطلوب؟

– روبل ونصف الروبل.

أخرج فيليب فيليبَفِتْش ثلاث قطع لمَّاعة من فئة نصف روبل وسلَّمها لفيودَرْ.

– ثم يدفع بسبب هذا السافل روبلًا ونصف الرُّوبل — سُمِع في الباب صوتٌ مبحوح — هو ذا بنفسه.

التفت فيليب فيليبَفِتْش فعض على شفته، ثم قبض على شاركف بقوة وأحكم إغلاق الباب عليه، وهو صامت؛ فقد حبسه في غرفة الاستقبال وقفل عليه بالمفتاح.

وفي الحال شرع شاركف يدق الباب من الداخل بقبضتيه.

– لا تتجرأ! — صاح فيليب فيليبَفِتْش بصوتٍ واضح المرض.

– يا لها من فعلة — وضمَّن فيودَرْ ملاحظته معاني كثيرة — إنني لم أرَ في حياتي مثيلًا لهذا الوقح ...

ظهر بورمنتال، وكأنه انبثق من تحت الأرض.

– فيليب فيليبَفِتْش، أرجوك، لا تقلق.

وفتح هذا الطبيب النشيط باب غرفة الاستقبال فترامى صوت من هناك: ما لك؟ أأنت في حانةٍ يا تُرى؟

– بالضبط ... — أجاب فيودَر الحازم — أجل بالضبط ... ليتك تزيده ضربة على أذنه ...

– ما لك، يا فيودَرْ، غمغم فيليب فيليبَفِتْش بحزن.

– لطفًا، إنني أشفق عليك، يا فيليب فيليبَفِتْش.

الفصل السابع

– كلا، كلا، ثم كلا — قال بورمنتال بإصرار — تفضَّل وضَعِ الفوطة.

– وماذا، أقسم بالله — غمغم شاركف متذمِّرًا.

– أشكرك، يا دكتور — قال فيليب فيلِيبَفِتْش بحنان — فلقد مللت من توجيه الملاحظات.

– ومع ذلك، فلن أسمح لك بتناول الطعام قبل أن تضع الفوطة. خذي المايونيز، يا زينا، من شاركف.

– كيف هذا؟ ... «خذي»؟ — غضب شاركف — سأضعها الآن، وحجب الطبق عن زينا بيده اليسرى، ثم دسَّ الفوطة تحت قبَّته بيده اليمنى فأصبح شبيهًا بزبونٍ في صالة الحلاقة.

– وبالشوكة، من فضلك — أضاف بورمنتال.

أطلق شاركف تنهُّدةً طويلة ومضى يتصيَّد قطع سمك الزجر من الصلصة الكثيفة.

– هل أشرب مزيدًا من الفودكا؟ — أعلن متسائلًا.

– ألا يكفيك ما شربت؟ — استفسر بورمنتال — إنك في الآونة الأخيرة تفرط في اهتمامك بالفودكا.

– هل ضاقت عينك؟ — تساءل شاركف وهو ينظر من تحت جبينه.

– إنك تتلفظ بسخافات ... — تدخَّل فيليب فيليبَفِتْش الصارم. ولكن بورمنتال قاطعه: لا تقلق، يا فيليب فيليبَفِتْش؛ فأنا سأرد. هراء ما تتلفظ به، يا شاركف، والشيء الأكثر إزعاجًا هو أنك تقوله بقطعيةٍ وثقة. طبعًا، أنا لم تضق عيني على الفودكا، سيَّما وأنها ليست لي، بل لفيليب فيليبَفِتْش. ببساطة، إنها مضرة. هذا أولًا. وثانيًا، إنك حتى

بدون الفودكا تتصرف على نحوٍ معيب — وأشار بورمنتال إلى خزانة الأواني المجَّبرة ... — أعطني، يا زينوشا، من فضلك مزيدًا من السمك.

وفي هذه الأثناء مد شاركف يده إلى الزجاجة وهو ينظر إلى بورمنتال بطرف عينه، ثم صبَّ قدحًا.

– يجب أن تعرض على الآخرين أيضًا — قال بورمنتال — هكذا: أولًا تصبُّ لفيليب فيليبَفِتْش، ثم لي، وفي الختام لك.

لاحت على فم شاركف بسمةٌ ساخرة خفيَّة، وصبَّ الفودكا في الأقداح.

– يجري كل شيء عندنا كما في استعراضٍ عسكري — تكلَّم شاركف — ضع الفوطة هكذا، وربطة العنق كذلك، ثم «اعذرني»، و«من فضلك» و«ميرسي»، أمَّا أن تتكلموا على نحوٍ طبيعي فذلك مستحيل! إنكم تعذبون أنفسكم كما كنتم تفعلون في ظل النظام القيصري.

– وكيف هذا «على نحوٍ طبيعي»، تفضَّل بإطلاعنا.

لم يرد شاركف على فيليب فيليبَفِتْش، بل رفع القدح وقال: أتمنى أن يكون كل شيء ...

– نتمنى لك الشيء نفسه — رد بورمنتال بشيءٍ من السخرية. فرشق شاركف الفودكا في بلعومه وقطَّب، ثم أدنى قطعة خبز من أنفه فشمَّها أولًا ثم بلعها فيما عيناه تفيضان بالدموع.

– الخبرة — نطق فيليب فيليبَفِتْش وهز رأسه بمرارة — لا حول ولا قوة لنا هنا. إنه كليم.[١]

حدَّق بورمنتال بحدةٍّ وباهتمامٍ فائق في عينَي فيليب فيليبَفِتْش.

– أتظن، يا فيليب فيليبَفِتْش؟

– لا حاجة بي للظن. إنني واثقٌ من ذلك.

– أحقًّا — بدأ بورمنتال ثم توقف وهو ينظر بطرف عينه إلى شاركف الذي قطَّب بارتياب.

– ... Spater[٢] — قال فيليب فيليبَفِتْش بصوتٍ خفيض.

– Gut[٣] — ردَّ المساعد.

[١] كليم: اسم الشخص السكير الذي زرعوا غدته النخامية في دماغ الكلب شاركف. (المترجم)

[٢] فيما بعد (بالألمانية في الأصل). (المترجم)

[٣] حسنًا (بالألمانية في الأصل). (المترجم)

أحضرت زينا الدجاجة الرومية، وصبَّ بورمنتال نبيذًا أحمر لفيليب فيليبَفِتْش، وعرَض على شاركف.

– لا أريد. خيرٌ لي أن أشرب الفودكا — كان وجهه دهنيًّا وجبينه ينضح بالعرق، وقد أخذه المرح.

ثم لان فيليب فيليبَفِتْش قليلًا بعد شرب النبيذ؛ فقد أشرقت عيناه، وراح ينظر بمزيدٍ من التسامح إلى شاركف الذي كان رأسه فوق الفوطة مثل ذبابة في اللبن.

أما بورمنتال فقد أظهر ميلًا إلى النشاط بعد الطعام.

– أيها السيد، ماذا سنفعل معًا هذا المساء؟ — تساءل بورمنتال متوجهًا إلى شاركف.

طرفت عينا شاركف وأجاب: فلنذهب إلى السيرك، ذلك أفضل شيء.

– كل يوم إلى السيرك — لاحظ فيليب فيليبَفِتْش بنفس طيبة — إن ذلك مملٌّ للغاية، برأيي. لو كنت مكانكما لذهبت إلى المسرح ولو مرة واحدة.

– لن أذهب إلى المسرح — رد شاركف بامتعاضٍ ورسم إشارة الصليب على فمه.

– إن التجشؤ أثناء الطعام يذهب بشهية الآخرين — أعلن بورمنتال آليًّا — اعذرني ... وعلى كل حال، فلماذا لا يعجبك المسرح؟

نظر شاركف إلى القدح الفارغ كما في منظار، ثم فكر ومط شفتيه.

ذلك هدرٌ للوقت ... يتكلمون ويتكلمون ... إنها ثورةٌ مضادة لا غير.

استند فيليب فيليبَفِتْش إلى ظهر مقعده القوطي وأطلق ضحكةً أظهرت فكَّه الذهبي يلمع في فمه. واكتفى بورمنتال بهز رأسه.

– لو تقرأ شيئًا ما ... — اقترح عليه بورمنتال — ... وإلا هل تعرف ...

– لكنني أقرأ، أقرأ ... — أجاب شاركف، ثم فجأة صبَّ لنفسه بوحشيةٍ وسرعة نصف كأس من الفودكا.

– زينا!— نادى فيليب فيليبَفِتْش بقلق — أخرجي الفودكا من هنا، يا طفلتي. لم نعد بحاجةٍ إليها ... وماذا تقرأ؟ وفجأة لمعت في ذهنه لوحة لجزيرةٍ غير مأهولة، فيها نخلة وإنسان يرتدي جلد وحش وقلنسوة. «سيكون روبنسون ضروريًّا ...»

– تلك ... ما اسمها ... مراسلات إنغلز مع ... ما اسم ذلك الشيطان ... مع كاوتسكي.

أوقف بورمنتال شوكته في منتصف المسافة إلى فمه وعليها قطعة لحم بيضاء، فيما أترع فيليب فيليبَفِتْش النبيذ. وإذ ذاك تخابث شاركف وكرع الفودكا.

فأسند فيليب فيليبَفِتْش كوعيه على الطاولة ثم حدَّق بشاركف وسأله: اسمح لي أن أعرف ماذا بوسعك أن تقول بصدد ما قرأت؟ هز شاركف كتفيه.

– لكنني لست موافقًا.

– مع من؟ مع إنغلز أم مع كاوتسكي؟

– مع كليهما — أجاب شاركف.

– هذا بديع، أقسم بالله. «جميع مَن يقول إن أخرى ...». وماذا بإمكانك أن تقترح من جهتك؟

– وماذا تقترح هنا ... ما داموا يكتبون ويكتبون ... كونغرس، ألمان ما ... ف، ن الرأس ينتفخ. يجب الاستيلاء على كل شيء وتقسيمه ...

– هذا ما كنت أظنه — هتف فيليب فيليبَفِتْش وخبط غطاء الطاولة بيده — هذا ما توقعته بالضبط.

– وأنت تعرف الطريقة أيضًا؟ — سأله بورمنتال باهتمام.

– وأية طريقة هنا — أوضح شاركف وقد ازداد ميلًا إلى الكلام بعد تجرع الفودكا — ليس الأمر صعبًا، وإلا فكيف يشغل شخصٌ واحد سبع غرف ويملك أربعين زوجًا من البنطلونات، بينما يتسكع آخر بحثًا عن لقمة الطعام في برميل القمامة.

– أنت تُلمِّح إليَّ طبعًا بخصوص الغرف السبع؟ ضيَّق فيليب فيليبَفِتْش عينيه بتكبرٍ وسأله.

انكمش شاركف وصمت.

– حسنًا. إنني لست ضد التقسيم. فكم مريضًا رفضت بالأمس، يا دكتور؟

– تسعة وثلاثين مريضًا — أجاب بورمنتال في الحال.

– هم ... ثلاثمئة وتسعون روبلًا. طيب، فلنقاسم الخسارة نحن الرجال الثلاثة. لن أعدَّ السيدتين زينا وداريا بتروفنا. إنني أطلب منك يا شاركف مئة وثلاثين روبلًا. حاول أن تدفعها.

– شيءٌ جميل — أجاب شاركف وقد خاف — مقابل أي شيء هذا؟

– مقابل صنبور الماء والقط — زعق فيليب فيليبَفِتْش فجأة وقد خرج من حالة الهدوء الساخر.

– فيليب فيليبَفِتْش — صاح بورمنتال بهلع.

– انتظر. مقابل قلة الأدب التي سببتها وأدت إلى إلغاء الاستقبال. شيء لا يطاق. إنسانٌ يقفز في الشقة كلها كأنه بدائي ويكسر الصنابير ... من الذي قتل قطة السيدة بولا سوخر؟! مَن ...

– أنت، يا شاركف، مَن عض سيدة على السلم قبل ثلاثة أيام — سارع بورمنتال بالقول.

– إنك ما زلت ... — جأر فيليب فيليبَفِتْش.

– هي التي صفعتني على وجهي — عوى شاركف — إن وجهي ليس حكوميًّا!

– لأنك قرصت نهديها — صرخ بورمنتال وقلب الكأس — إنك ما زلت ...

– إنك ما زلت في أدنى درجات التطور — ارتفع صراخ فيليب فيليبَفِتْش — أنت ما تزال كائنًا في طور التكون، ضعيفًا من الناحية العقلية، وكل تصرفاتك وحشية محضة، ثم إنك وبحضرة اثنين يحملان شهادةً جامعية تسمح لنفسك أن تقدِّم، بوقاحةٍ لا تطاق إطلاقًا، نصائح ذات بُعدٍ كوني وحماقةٍ كونية أيضًا حول اقتسام كل شيء، كما أنك في الوقت نفسه قد أتخمت نفسك بالهراء!

– قبل ثلاثة أيام — أكد بورمنتال.

– وهكذا، يا سيد — رعد فيليب فيليبَفِتْش — فلتحفر ذلك على أنفك،[٤] (وبالمناسبة لماذا مسحت عنه مرهم الزنك؟)، إن عليك أن تصمت وتستمع إلى ما يقال. عليك أن تتعلم وتحاول أن تكون عضوًا مقبولًا في المجتمع البشري ولو في أدنى الحدود! وبالمناسبة، أيُّ لئيم زوَّدك بهذا الكتيِّب؟

– الجميع عندك لئام — أجاب شاركف بخوفٍ وقد أخرسه الهجوم من الجانبين.

– إنني أتوقع — هتف فيليب فيليبَفِتْش وهو يحمر غضبًا.

–وماذا؟ طيب، شفوندر أعطاه لي. وهو ليس لئيمًا. لكي أتطور.

– ها أنا أرى كيف تطورت بعد كاوتسكي! — صرخ فيليب فيليبَفِتْش بحدة وعلاه الشحوب. وهنا ضغط على زرٍّ في الجدار بغضبٍ عنيف — إن حادثة اليوم تفصح عن ذلك خير إفصاح! زينا!

– زينا! — صرخ بورمنتال.

– زينا! — زعق شاركف مرعوبًا.

هرعت زينا شاحبة.

زينا! هناك في غرفة الاستقبال ... هل هو في غرفة الاستقبال؟

---

[٤] كناية روسية تعني: لا تنسَ أبدًا، ولكننا أبقينا على حرفيتها نظرًا للتداعي الذي أوجب بقاءها كي يتضح. (المترجم)

– في غرفة الاستقبال — أجاب شاركف بخنوع — إنه أخضر مثل الزَّاج.

– كتيِّب أخضر ...

– أفٍّ، سيحرقونه حالًا! — هتف شاركف بقنوط ... — إنه كتابٌ حكومي، من المكتبة!

– اسمه مراسلة ... ما اسمه؟ إنغلز مع هذا الشيطان ... ألقي به في الموقد!

استدارت زينا وطارت.

– أقسم بشرفي، لكنت علَّقت هذا الشفوندر على أول غصن أصادفه — هتف فيليب فيليبَفِتْش وهو يغرز أسنانه بعنفٍ في جناح الدجاجة الرومية — إنه هراء عجيب يعيش في العمارة كأنه دمل. لا يكفيه ما يكتبه من سخرياتٍ شنيعة عديمة المعنى في الجرائد ...

شرع شاركف ينظر بطرف عينه إلى البروفيسور بغضبٍ وسخرية، فوجَّه إليه فيليب أيضًا نظرة مائلة وصمت.

«آخ، يبدو أننا لن نتوصَّل إلى أي شيءٍ طيب في هذه الشقة» — داهمت هذه النبوءة بورمنتال فجأة.

أحضرت زينا على طبقٍ مستدير قالبًا من الحلوى أسطوانيًّا أحمر من الجانب الأيمن، ووورديًّا من الجانب الأيسر، وإبريق قهوة.

– لن آكل منه — أعلن شاركف في الحال بنبرة تهديد عدائية.

– بل ولا أحد يدعوك. تصرَّف بأدب. تفضَّل يا دكتور.

انتهى الغداء في صمت.

أخرج شاركف من جيبه لفافةً مدعوكة ودخَّن. وبعد أن شرب فيليب فيليبَفِتْش القهوة نظر إلى الساعة ثم ضغط على زرٍّ فيها فعُزفت موسيقى الثامنة والربع بعذوبة. استند فيليب فيليبَفِتْش، على جري عاته، إلى ظهر المقعد القوطيِّ ومد يده إلى جريدةٍ على الطاولة.

– أرجوك يا دكتور، أن تذهب معه إلى السيرك. لكن انظر، كرمى لله، أليس في البرنامج قطط؟

– ولكن كيف يسمحون لهؤلاء الأوغاد بدخول السيرك — لاحظ شاركف مقطبًا وهو يهز رأسه.

– إنهم يسمحون لأنواعٍ كثيرة — رد فيليب فيليبَفِتْش بتضمين — ماذا عندهم؟

– عند صلمونسكي — راح بورمنتال يقرأ — أربعة من نوع ... يوسِّمس وإنسان النقطة الميتة.

– وما هذا اليوسِّمس؟ — تساءل فيليب فيليبَفِتْش بارتياب.

– الله أعلم. أول مرة أصادف هذه الكلمة.

– إذن فمن الأفضل أن ننظر ماذا عند نيكيتن. لا بد أن يكون كل شيء واضحًا.

– عند نيكتين ... عند نيكتين ... هم ... الأفيال وأقصى المهارة البشرية.

– هكذا. ماذا تقول بخصوص الأفيال يا عزيزي شاركف؟ — سأله فيليب فيليبَفِتْش بارتياب.

فتضايق شاركف.

– وماذا، أتُراني لا أفهم؟ القط شيء آخر. أما الأفيال فحيواناتٍ مفيدة — أجاب شاركف.

– وهذا ممتاز. ما دامت مفيدة فاذهب وتفرَّج عليها. يجب أن تطيع إيفان أرنولدَفِتش. ولا تتدخل هناك في أية أحاديث في المطعم. أرجوك رجاءً خاصًّا يا إيفان أرنولدَفِتش لا تقدِّم الجعة لشاركف.

وبعد مُضي عشر دقائق خرج إلى السيرك كلٌّ من إيفان أرنولدوفتش وشاركف الذي كان يرتدي قبعةً بمنقار بطة ومعطفًا من الجوخ منتصب الياقة.

خيَّم الهدوء في الشقة. ووجد فيليب فيليبَفِتْش نفسه في مكتبه، فأشعل المصباح الكهربائي تحت الظليلة الخضراء الثقيلة وعمَّت المكتب الضخم سكينة كاملة، ثم راح يذرع الغرفة. فظلت نهاية السيكار الملتهبة بنارٍ خضراء شاحبة تضيء وقتًا طويلًا. وضع البروفيسور يديه في جيبَي بنطلونه، فيما كانت فكرة ثقيلة تعذب رأسه الذكي الأجلح. كان يتمطَّق بلسانه ويغني من خلال أسنانه «إلى شواطئ النيل المقدسة ...»، ويدمدم بشيءٍ ما. وأخيرًا وضع السيكار في المنفضة ودنا من الخزانة الزجاجية ثم أضاء المكتب كله بثلاثة مصابيح تتدلى من السقف باهرة. تناول فيليب فيليبَفِتْش عن الرف الزجاجي الثالث في الخزانة قارورةً ضيقة ثم تجهم وراح يفحصها في ضوء المصابيح. كانت كتلة بيضاء صغيرة مستخرَجة من أعماق دماغ شاركف، عائمة في السائل الكثيف الشفاف دون أن تهبط إلى القاع. طفقَ فيليب فيليبَفِتْش يهز كتفيه ويلوي شفتيه ويزفر من أنفه وهو يلتهم بعينيه الكتلة البيضاء العائمة كمن يريد أن يعثر فيها على سبب الأحداث العجيبة التي قلبت الحياة رأسًا على عقب بشقته في بريتشيستنكي.

من الجائز تمامًا أن يكون هذا الإنسان العلَّامة قد عثر على السبب. وعلى أية حال؛ فقد أطال النظر إلى قطعة المخ، ثم أخفى القارورة بعد ذلك في الخزانة وقفلها ووضع المفتاح في جيب صدريته. وانهدَّ على جلد المقعد فزمَّ رأسه بين كتفيه ودسَّ يديه عميقًا في

جيبَي جاكيته. ظلَّ وقتًّا طويلًا يشعل سيكاره الثاني، وبعد أن أشبع نهايته لَوْكًا، وهو وحيد تمامًا، مظلل بالأخضر مثل فاوست الأشيب، هتف أخيرًا: أي والله، يبدو أنني سأحزم أمري.

لم يجبه أحد على ذلك؛ فقد توقفت جميع الأصوات في الشقة؛ إذ تخمد الحركة في زقاق أبوخَف في الحادية عشرة كما هو معروف. ونادرًا ما كان يترامى من بعيد وقعُ خطوات أحد المشاة المتأخرين وهي تمضي خلف الستائر وتذوب. ورنَّ في المكتب جرس الساعة بلطفٍ تحت أصابع فيليب فيليبَفِتْش في جيبه الصغير. كان البروفيسور ينتظر بفارغ الصبر عودة الدكتور بورمنتال وشاركف من السيرك.

الفصل الثامن

ليس معروفًا ما قرَّ عليه قرار فيليب فيليبَفِتْش. فهو لم يتخذ أي قرارٍ لافت خلال الأسبوع التالي، بل وقد تكون الشقة فاضت بالحوادث نتيجة لعطالته.

فقد استقبل شاركف من لجنة السكن، بعد حوالي ستة أيام من قصة الماء والقط؛ تلك المرأة التي ظُنَّ أنها شاب، فسلمته وثائق لم يلبث شاركف أن دسها في جيب جاكيته ثم نادى الدكتور بورمنتال في الحال.

– بورمنتال!

– لا، نادني باسمي واسم أبي من فضلك — رد بورمنتال وقد تغير وجهه.

وينبغي أن نشير إلى أن الجرَّاح كان خلال هذه الأيام الستة قد تخاصم حوالي ثماني مرات مع ربيبه. وكان الجو خانقًا في غرف أبوخَف.

– إذن، فلتنادني أنت أيضًا باسمي واسم أبي — أجاب شاركف بكامل الحق.

– كلا! — زمجر فيليب فيليبَفِتْش في الباب — لن أسمح بمناداتك بهذين الاسمين في شقتي. إذا كان يطيب لك أن نكف عن مناداتك على نحوٍ سوقي باسم «شاركف»، فإنني أنا والدكتور بورمنتال سوف نسميك «السيد شاركف.»

– لست سيدًا؛ لأن جميع السادة في باريس! — رد عليه شاركف نابحًا.

– هذا تعليم شفوندر! — صرخ فيليب فيليبَفِتْش — حسنًا، سوف أتحاسب مع هذا اللئيم، ولن يكون لأحدٍ غير السادة مكان في شقتي ما دمتُ أنا موجودًا فيها! وفي الحالة المعاكسة فسوف يغادر واحدٌ منا هذا المكان، إما أنا أو أنت، وبالأحرى أنت. إنني سأنشر اليوم إعلانًا في الجرائد، وصدِّقني أنني سأجد لك غرفة.

– معلوم، ما أنا إلا أحمق لأترك هذه الشقة — أجاب شاركف بجلاء.

– كيف؟ — سأله فيليب وتغيرت ملامح وجهه لدرجةٍ جعلت بورمنتال يفقد صوابه ويأخذه من كمِّه وبرقَّةٍ وخوف.

– هل تعرف، لا تتواقح يا مسيو شاركف! — ورفع بورمنتال صوته عاليًا، فتراجع شاركف وأخرج من جيبه ثلاث أوراق: خضراء وصفراء وبيضاء، ثم تكلم وهو يشير بأصابعه: انظروا. إنني عضوٌ في جمعية السكن، ويحق لي أن أسكن في الشقة رقم خمسة تحديدًا عند المستأجر المسئول بريوبراجينسكي وأن أشغل اثني عشر مترًا مربعًا — ثم فكر شاركف وأضاف كلمةً سجَّلها بورمنتال آليًّا في ذهنه باعتبارها جديدة هي: فلتتكرموا.

نطق فيليب فيليبَفِتْش بتهورٍ وهو يعض على شفته: أقسم أني، في نهاية المطاف، سأطلق النار على هذا الشفوندر.

– استقبل شاركف هذه الكلمات بأقصى درجات الانتباه والحدة، وكان ذلك واضحًا في عينيه: فيليب فيليبَفِتْش، Vorsichtig[1] ... — بدأ بورمنتال يحذِّره.

– أمَّا، تعرف ... إذا كان يتلفظ بهذه النذالة! ... — جأر فيليب فيليبَفِتْش بالروسية ... — ضع في اعتبارك يا شاركف ... يا سيد، أنني، إذا كنت ستسمح لنفسك بتصرُّفٍ وقح واحد، أنني سأحرمك من وجبة الغداء، وبالجملة من تناول الطعام في بيتي. اثنا عشر مترًا مربعًا شيءٌ رائع، إلا أنني لست ملزمًا بإطعامك بموجب هذه الورقة الضفدعيَّة اللون!

خاف شاركف عندئذٍ وفتح فمه ثم غمغم: لا أستطيع البقاء دون طعام، فأين سأجد من يستضيفني؟

– إذن فلتتصرف على نحوٍ لائق — أعلن الاثنان بصوتٍ واحد.

همد شاركف إلى حدٍّ كبير ولم يسبب أي أذى في ذلك اليوم إلا لنفسه؛ فقد استغل غيبة بورمنتال القصيرة فاستولى على شفرته للحلاقة وأحدث في صدغه شقًّا اضطر فيليب فيليبَفِتْش والدكتور بورمنتال أن يخيطا الجرح، مما جعل شاركف يعوي ويسكب الدموع فترةً طويلة.

وفي الليلة التالية كان اثنان يجلسان في مكتب البروفيسور يكللهما غبشٌ أخضر، هما فيليب فيليبَفِتْش نفسه وبورمنتال الوفي المرتبط به. كان سكان البيت نائمين. وكان فيليب فيليبَفِتْش مرتديًا مريلته السماوية وحذاءه الأحمر، بينما كان بورمنتال يرتدي قميصًا وحمَّالتَي بنطلون من اللون الأزرق. وكان ثمة فيما بين الطبيبين زجاجة كونياك وصحن

[1] حذارِ (بالألمانية في الأصل).

ليمون صغير وصندوق سيكار على طاولةٍ مستديرة بالقرب من ألبوم صور مفتوح. ملأ العالِمان الغرفة بدخان السيكار وراحا يناقشان الحادثة الأخيرة، حيث إن شاركف سرق في ذلك المساء من مكتب فيليب فيليبَفِتْش ورقتين من فئة عشرة روبلات كانتا تحت المكبس، ثم غاب عن الشقة وعاد متأخرًا وسكران تمامًا. زِدْ على ذلك أنه رافقه شخصان مجهولان وأثارا صخبًا على السلم الرئيسي ثم أبديا رغبةً في المبيت هنا بوصفهما ضيفين على شاركف. ولم يغادر الشخصان المعنيان إلا بعد أن لجأ فيودَرْ إلى الاتصال هاتفيًّا بقسم الشرطة الخامس والأربعين، بعد أن حضر هذا المشهد ملقيًا على كتفيه معطفه الخريفي فوق ثيابه الداخلية. وما إن وضع فيودَرْ السماعة من يده حتى خرج الشخصان. لكن أحدًا لا يعرف أين اختفت بعد خروجهما المنفضة الحجرية الخضراء من فوق قاعدة المرآة في فسحة المدخل، ولا قبعة فيليب فيليبَفِتْش المصنوعة من فرو القندس، ولا عصاه أيضًا، تلك العصا التي كان مكتوبًا عليها بخيوط الذهب: «إلى العزيز والمحترم فيليب فيليبَفِتْش من أطباء المستشفى الشاكرين بمناسبة يوم ...»، ثم أعقب ذلك الرقم الروماني XXV.[٢]

– من هما؟ — هجم فيليب فيليبَفِتْش على شاركف مكوِّرًا قبضتيه.

راح شاركف يترنح ويلتصق بمعاطف الفرو وهو يغمغم قائلًا إنه يجهل هذين الشخصين، وأنهما ليسا من أولاد الكلاب، بل هما طيبان.

– إن أعجب شيء هو أنهما كليهما سكرانان، فكيف تمكنا من الاحتيال؟! — دهش فيليب فيليبَفِتْش وهو في الفسحة ينظر إلى المكان الذي كانت ذكرى اليوبيل موجودة فيه ذات يوم.

– اختصاصيَّان، أوضح فيودَرْ وهو يمضي إلى النوم مع روبل في جيبه.

وقد أنكر شاركف العشرتين إنكارًا قاطعًا، وشرع في أثناء ذلك يتلفظ بأشياء مبهمة، بحجة أنه ليس وحيدًا في الشقة على أية حال.

– آها! قد يكون الدكتور بورمنتال هو الذي سرق العشرتين؟ استوضح فيليب فيليبَفِتْش بصوتٍ خفيض ولكنه ينطوي على نبرةٍ مرعبة.

تمايل شاركف ثم فتح عينيه الذابلتين تمامًا وأدلى بافتراض: وقد تكون زينكا مَن أخذتهما ...

[٢] هو الرقم ٢٥. (المترجم)

– ماذا؟! زعقت زينا ووقفت بالباب مثل شبح وهي تغطي بكفها شق كنزتها المفتوحة على صدرها — وكيف له ...

اصطبغت رقبة فيليب فيليبَفِتْش بلونٍ أحمر.

– بهدوءٍ يا زينوشا — نطق وهو يبسط ذراعيه نحوها — لا تقلقي، سنتدبر الأمر كله.

أجهشت زينا بالبكاء فورًا ثم أرخت شفتيها وراحت تدق بكفها على عظم الترقوة.

– زينا، عيب عليك! من يستطيع أن يشك بك؟ تفو، يا للعار، تكلم بورمنتال بشرود.

– أما حمقاء يا زينا، غفرانك اللهم! — بدأ فيليب فيليبَفِتْش، إلا أن بكاء زينا توقف عندئذٍ من تلقاء نفسه، وصمت الجميع. وساءت حالة شاركف؛ فقد اصطدم رأسه بالجدار وأطلق صوتًا بين «إي» و«يِ» أشبه بـ «إِ-إِ-إِ»، ثم شحب لونه وارتجف حنكه بتشنج.

– هاتوا للسافل سطلًا من غرفة الكشف!

وتراكض الجميع لرعاية شاركف الذي ألمَّ به المرض. وعندما قادوه إلى النوم أخذ يتمايل بين يدي بورمنتال ويطلق برقَّةٍ مفرطة وتنغيمٍ كافٍ شتائمَ مقذعةً كان ينطقها بصعوبة.

لقد جرت هذه الحادثة برمتها في حوالي الواحدة، بينما كانت الساعة الآن حوالي الثالثة بعد منتصف الليل، إلا أن اثنين في المكتب كانا سهرانَين، متنبهَين بالكونياك مع الليمون. وقد أكثرا من التدخين حتى صار الدخان يتحرك طبقات كثيفة بطيئة، بل ومن غير أن يتماوج.

نهض الدكتور بورمنتال شاحبًا وعيناه حاسمتان تمامًا، فرفع القدح المخصورة كأنها يعسوب.

– فيليب فيليبَفِتْش — هتف بصوتٍ عاطفي — لن أنسى أبدًا كيف جئتك طالبًا شبه جائع فآويتني في القسم. ثق يا فيليب أنك في نظري أكبر بكثيرٍ من بروفيسور ومعلم ... إن احترامي اللامحدود لك ... اسمح لي أن أُقبِّلك، أيها العزيز فيليب فيليبَفِتْش.

– نعم أيها الغالي ... جأر فيليب فيليبَفِتْش بارتباكٍ ونهض للقائه، فعانقه بورمنتال وقبَّل شاربيه الكثين المشبعين برائحة التبغ.

– والله يا فيليب فيلدي ...

– كم أثَّرت فيَّ ... شكرًا لك — قال فيليب فيليبَفِتْش — إنني يا عزيزي أرفع صوتي عليك أحيانًا في أثناء العمليات، فلتغفر لي نزق الشيخوخة. فأنا في الحقيقة وحيد للغاية ...

«من إشبيليا إلى غرناطة ...» — فيليب فيليبَفِتْش، يا للعيب! ... — هتف الناري بورمنتال صادقًا — إذا كنت لا تريد إزعاجي فلا تعد إلى مخاطبتي على هذا النحو.

– شكرًا لك ... «إلى شواطئ النيل المقدسة ...» شكرًا ... وأنا قد أحببتك طبيبًا ماهرًا.

– أقول لك يا فيليب فيليبَفِتْش ... — هتف بورمنتال بحماسة، وهبَّ من مكانه فأحكم إغلاق الباب المفضي إلى الممر، ثم عاد وتابع همسًا: إذ إنه المخرج الوحيد. إنني طبعًا لا أجرؤ على تقديم النصائح لك، ولكن انظر إلى نفسك يا فيليب فيليبَفِتْش، فلقد أُنهكت تمامًا، ولا يجوز أن تعمل بعد!

– مستحيل تمامًا! تنهَّد فيليب فيليبَفِتْش وقال مؤكدًا.

– إذن. إنه أمرٌ عديم المعنى — راح يهمس بورمنتال — لقد قلتَ في المرة الماضية إنك تخاف عليَّ، وليتك تعرف أيها البروفيسور العزيز كيف كان وقْع ذلك في نفسي. إلا أنني لست صبيًّا، بل أنا أتصور إلى أي حدٍّ يمكن أن يكون الأمر سيئًا. ولكن حسب يقيني العميق لا يوجد مخرج آخر.

نهض فيليب فيليبَفِتْش فلوَّح بيديه عليه وصاح: لا تحاول إغوائي، بل ولا تكلمني — وراح البروفيسور يتمشى في المكتب ويبدد أمواج الدخان — فإنني لن أستمع. أتدري ماذا سيحصل فيما إذا انكشف أمرنا؟ ذلك أن عبارة «آخذين بعين الاعتبار منبته الطبقي» لا تنطبق علينا، بصرف النظر عن محاكمتنا الأولى. فهل عندك المنبت المناسب يا عزيزي؟

– ومن أين لي ذلك! كان أبي محققًا قضائيًّا في مدينة فيلنوس[٣] — أجاب بورمنتال بمرارةٍ وهو يرشف الكونياك.

– إذن، فهذا كافٍ. إنه إرثٌ سيئ. ويتعذر أن تتصور ما هو أشنع منه. على كل حال، معذرة، فإن أرثي أسوأ؛ إذ إن أبي كان رئيس قمامصة،[٤] ميرسي «من إشبيليا إلى غرناطة، في غبش الليالي الهادئ». فليأخذ الشيطان ذلك الإرث.

– فيليب فيليبَفِتْش، إنك شخصية ذات شهرة عالمية، فهل بسبب ابن كلب ما، واعذرني على هذا التعبير ... بل لطفًا، هل بوسعهم أن يمسوك!

– ومع ذلك فلن أُقْدِم على هذا الأمر — اعترض فيليب فيليبَفِتْش بشرودٍ وهو يتوقف ويحدِّق في الخزانة الزجاجية.

---

[٣] عاصمة ليتوانيا إحدى جمهوريات البلطيق الثلاث في العهد السوفيتي. (المترجم)

[٤] جمع قُمُّص، وهي مرتبة دينية في الكنائس. (المترجم)

– ولماذا؟

– ذلك لأنك أنت لست شخصية ذات شهرة عالمية، أليس كذلك؟

– من أين ...

– هكذا إذن، فإما أن أتخلى عن زميلي وقت الكارثة وأنجو بنفسي على ظهر الشهرة العالمية، اعذرني ... إنني طالبٌ موسكوفي ولست شاركف.

ورفع فيليب فيليبَفِتْش كتفيه بكبرياء، فغدا شبيهًا بملكٍ فرنسي قديم.

– آخ، يا فيليب فيليبَفِتْش ... — هتف بورمنتال بمرارة — فما العمل إذن؟ وهل ستنتظر الآن ريثما يُتاح لك أن تجعل من هذا الأزعر إنسانًا؟

أوقفه فيليب فيليبَفِتْش بحركةٍ من يده، وصبَّ الكونياك لنفسه ثم كرعه ومصَّ قطعة ليمون وقال: ما رأيك يا إيفان أرنولدَفِتش، هل أفقه شيئًا في تشريح وفيسيولوجيا جهاز الدماغ البشري، مثلًا؟ ما رأيك؟

– ما لك تسأل، يا فيليب فيليبَفِتْش؟ — أجاب بورمنتال بتعاطفٍ كبيرٍ وبسط ذراعيه.

– حسنًا. بلا تواضع كاذب. أنا أيضًا أفترض أنني لست في موسكو آخر إنسان في هذا الأمر.

– أما أنا فأفترض أنك الأول وليس في موسكو وحدها، بل وفي لندن وأوكسفورد — قاطعه بورمنتال بانفعالٍ شديد.

– طيب، ليكن الأمر كذلك. ولكن يا بروفيسور المستقبل بورمنتال، إن هذا لن يتاح لأحد. طبعًا. بل بوسعك ألَّا تسأل. فلتستشهد بي ولتقل إن بريوبراجينسكي هو الذي قال هذا الكلام Finite.[5] يا كليم! — فجأة صاح فيليب فيليبَفِتْش بانتصارٍ فردَّت عليه الخزانة بالرنين ... — كليم! — صاح ثانيةً — اسمع يا بورمنتال، إنك أول تلميذ في مدرستي، وفوق هذا يا صديقي فانا قد تيقَّنت اليوم من ذلك. إليك إذن، بوصفك صديقًا، أفشي سرًّا — طبعًا أعرف أنك لن تُلحِق بي العار — أن الحمار العجوز بريوبراجينسكي قد فشل في هذه العملية شأنه شأن طالب في السنة الثالثة. حقًّا. لقد تحقق اكتشافٌ أنت نفسك تعرف قيمته — وهنا أشار فيليب فيليبَفِتْش بمرارةٍ بيديه الاثنتين إلى ستارة النافذة مُلمِّحًا إلى موسكو على ما يبدو — ولكن ضع في اعتبارك يا إيفان أرنولدَفِتش أن النتيجة

[5] انتهى.

الوحيدة لهذا الاكتشاف هي أننا الآن جميعنا سنحمل هذا الشاركف. انظر أين، — وهنا ربت بريوبراجينسكي على رقبته المستديرة الميالة إلى الشلل — كن مطمئنًّا! لو أن أحدًا ما — تابع فيليب فيليبَفِتْش بتلذذ — بَطَحَني هنا وجلدني لكنت دفعت له خمس عشرات، وأقسم لك على ما أقول ... «من إشبيليا إلى غرناطة ...»، فليأخذني الشيطان ... فلقد أمضيت خمس سنوات وأنا أنبش الزوائد من الأمخاخ ... أنت تعرف أن ما أنجزته من عملٍ أمر لا يصدقه العقل. والسؤال الآن هو: لماذا؟ أَلِكي أقوم ذات يومٍ بديعٍ بتحويل ألطف كلب إلى هذه القذارة التي يقف لها شعر الرأس.

– شيءٌ خارق.

– إنني متفقٌ معك تمامًا. لكن تلك هي النتيجة يا دكتور، فبدلًا من أن يسير الباحث على هُدى الطبيعة وبالتوازي معها، تراه يستعجل المسألة ويلعن السر، وعندئذٍ إليك شاركف ولتأكلْه مع الطبيخ.

– أما لو كان هذا مخ اسبينوزا، يا فيليب فيليبَفِتْش؟

– نعم! — زأر فيليب فيليبَفِتْش — نعم! المهم ألَّا يموت هذا الكلب البائس تحت سكيني، فلقد رأيت أنت كم هي عسيرة هذه العملية.

وبكلمةٍ، فأنا فيليب بريوبراجينسكي، لم أقم بشيء أصعب منها في حياتي. نستطيع أن نزرع غدة اسبينوزا النخامية أو غدة أي عفريتٍ آخر من هذا القبيل فنجعل من الكلب كائنًا فائق الرقي. ولكن لأي شيطان؟ ذلك هو السؤال. أوضِح لي من فضلك، لماذا يجب أن ننتج اسبينوزات بطريقةٍ اصطناعية، ما دامت أية امرأة تستطيع أن تلدهم في أي وقت. فلقد ولدت سيدةٌ ذلك الشهير لَمَنوسَف[٦] في خَلْمَغوري. إن البشرية نفسها يا دكتور تتولى ذلك وفقًا لنظامٍ تطوري كل عام، وهي تغربل بإصرارٍ حشدًا من سخافاتٍ شتى لتخلق عشرات العبقريات الفذة التي تزيِّن الكرة الأرضية. لقد اتضح لك الآن يا دكتور سبب انتقاصي من استنتاجك في سجل مرض شاركف. إن اكتشافي، وليت الشياطين أكلته، ذلك الاكتشاف الذي تنكبُّ أنت عليه، لا يساوي أكثر من قرشٍ مكسور ... ولا تجادل يا إيفان أرنولدَفِتش، فأنا قد فهمت الآن كل شيء. إنني لا ألقي الكلام على عواهنه أبدًا، وأنت تعرف

[٦] لَمَنوسَف، ميخائيل فاسيلفتش (١٧١١–١٧٦٥م) عالمٌ وأديب روسي، له دور رائد في إنشاء الأدب الروسي الحديث وإصلاح اللغة الروسية الأدبية، من مؤلفاته «قواعد اللغة الروسية» (١٧٥٥م)، و«تاريخ روسيا» (١٧٦٦م). (المترجم)

ذلك جيدًا. إن ذلك ممتع نظريًّا. حسنًا! فعلماء الفيسيولوجيا سيدهشون ... وموسكو دائخة ... ولكن ما النتيجة عمليًّا؟ مَن أمامك الآن؟ — وأشار بريوبراجينسكي بإصبعه صوب غرفة الكشف، حيث كان شاركف نائمًا.

– تافهٌ منقطع النظير.

– ولكن من هو؟ إنه كليم، كليم! — صرخ البروفيسور — كليم تشوغونكن! (فَغَرَ بورمنتال فاه) — فانظر: محاكمتان، إدمان الكحول، «تقاسُم كل شيء»؛ فقدان القبعة وعشرين روبلًا — وهنا تذكَّر فيليب فيليبَفِتْش عصا اليوبيل فاحمر — جلفٌ وخنزير ... ولكنني سأجد هذه العصا. وباختصار، فإن الغدة النخامية هي الحجرة التي تتحكم بتكوين فرد بشري معين. معين! ... «من إشبيليا إلى غرناطة ...» — راح فيليب فيليبَفِتْش يصرخ وعيناه تدوران بوحشية. وليس الفرد البشري عامة! إنها الدماغ نفسه مصغَّرًا! وأنا لست في حاجةٍ إليه ألبتة، فليذهب إلى جميع الخنازير. لقد كنت مهتمًّا بشيءٍ آخر كليًّا، بالهندسة الوراثية، بتحسين الفصيلة البشرية. ولكنني اصطدمت بتجديد الشباب! أتُراك تظن أنني أقوم بذلك من أجل المال؟ غير أنني عالمٌ على كل حال ...

– بل عالمٌ عظيم أنت — نطق بورمنتال وهو يتجرع الكونياك، واحتقنت عيناه بالدم.

– لقد أردت أن أقوم بتجربةٍ صغيرة بعد أن حصلت أول مرة قبل سنتين على عينة هرمونات تناسلية من الغدة النخامية. فما الذي نتج بدلًا من ذلك؟ يا إلهي! يا لهذه الهرمونات من الغدة النخامية، يا إلهي ... إنني يا دكتور أمام خذلانٍ عتيد، وأقسم لك بأنني ضعت. فجأة شمَّر بورمنتال كُميه ونطق مقرِّبًا عينيه من أنفه: إذن، يا معلمي العزيز، إن كنت لا ترغب، فأنا شخصيًّا سأجازف وألقمه السُّمَّ، وإلى الشيطان كون أبي محققًا قضائيًّا، فشاركف في نهاية المطاف، كائنك التجريبي الخاص.

انطفأ فيليب فيليبَفِتْش وذبل ثم تراخى وانهد في الكنبة وقال: كلا. إنني لم أسمح لك بذلك أيها الولد الغالي. إن عمري ستون سنة وبوسعي أن أُسدي لك النصح. لا تُقدِم على جريمةٍ ضد أي كائنٍ أبدًا. ولتعش حتى الشيخوخة نظيف اليدين.

– رحماك يا فيليب فيليبَفِتْش، ولكن ما عسى أن تكون النتيجة إذا ما عاد وشحذه هذا الشفوندر؟ يا إلهي، الآن فقط أبدأ أفهم عما قد يتكشف هذا الشاركف!

– آها؟ لقد فهمتَ الآن. أما أنا فقد فهمت بعد العملية بعشرة أيام. وهكذا فإن شفوندر هو الأحمق الأكبر؛ فهو لا يفهم أن شاركف أكثر خطرًا عليه مما هو عليَّ، إلا أنه الآن يحاول بكل السبل أن يحرِّضه ضدي دون أن يدرك أن شاركف إذا ما حرضه أحدٌ ضد شفوندر فلن تأخذه به رحمة.

– وكيف لا، وقد عجزت عنه حتى القطط! إنسانٌ بقلب كلب.

– آ، كلا، كلا — أجاب فيليب فيليبَفِتْش بصوتٍ ممطوط — إنك يا دكتور ترتكب أفدح خطأ، فلا تستغِبِ الكلب، كرمى لله، القطط شيء مؤقت ... إنها مسألة تدريب وأسبوعين أو ثلاثة أسابيع من الزمن. أؤكد لك، ما هو إلا شهر حتى يكف عن مهاجمتها.

– ولماذا ليس الآن؟

– إنه لشيءٌ طبيعي يا إيفان أرنولدَفِتش ... حقًّا، فما لك تسأل؟ ذلك أن الغدة النخامية لن تتدلى في الهواء. إنها مزروعة في مخ الكلب، فلتدَعها تلتئم. ولم يعد شاركف يفصح الآن إلا عن بقايا طبيعته الكلبية. ولتفهم أن سلوكه مع القطط هو أفضل ما يفعله، تصوَّر أن الرعب كله يكمن في أن فيه الآن قلب إنسان وليس قلب كلب. بل وهو أسوأ قلب بين القلوب الموجودة في الطبيعة.

شد بورمنتال قبضتَي يديه الناحلتين القويتين وهو متوتر الأعصاب إلى أقصى حد، ثم هز كتفيه ونطق بحزم: طبعًا سأقتله.

– إنني أحظر هذا — رد فيليب فيليبَفِتْش بلهجةٍ قطعية.

– ولكن رحماك ...

وفجأة توفَّز فيليب فيليبَفِتْش ورفع إصبعه.

– انتظر ... كأنني سمعت خطوات.

أنصت الاثنان، ولكن الهدوء. كان مخيمًا على الشقة.

– خُيل لي — نطق فيليب فيليبَفِتْش وانطلق يتحدث بالألمانية بحرارة، وتردد بضع مرات في حديثه كلمة «الإجرام» الروسية.

– لحظة — احترس بورمنتال فجأة وخطا نحو الباب، فترامى جليًّا وقع خطوات وهي تدنو من الباب. وفوق ذلك غمغم صوت، ففتح بورمنتال الباب وارتد مندهشًا، فيما تجمد فيليب فيليبَفِتْش في الكنبة مصعوقًا تمامًا.

أطلت داريا بتروفنا من مربع الممر المضاء وهي في ثوب النوم وحده، ووجهها قتاليٌّ مشتعل. انبهرت عيون الطبيب والبروفيسور باكتناز الجسد القوي والعاري تمامًا، كما خُيل لكليهما بفعل الخوف. كانت داريا بتروفنا تجر بيديها الجبارتين شيئًا ما، وكان هذا الـ «شيئًا ما» يبذل محاولةً عنيدة ليجلس على مؤخرته، فيما رجلاه الصغيرتان المكسوتان بوبرٍ أسود تتشبثان بالأرض الخشبية. ثم تبين أن هذا الـ «شيئًا ما» ليس إلا شاركف طبعًا، وهو ضائعٌ تمامًا وما يزال سكران، مشعثًا وليس عليه إلا القميص.

راحت داريا بتروفنا الضخمة والعارية تنفض شاركف مثل كيس من البطاطا وتقول هذه الكلمات: متع ناظريك أيها السيد البروفيسور بزائرنا تيليغراف تيليغرافوفتش.[٧] لقد كنت أنا متزوجة يومًا. أما زينا فهي فتاةٌ عذراء، مليح أنني أفقت.

وحين أنهت داريا بتروفنا قولها سيطر عليها إحساسٌ بالعار فزعقت ثم سترت صدرها بيديها وولت هاربة.

– داريا بتروفنا، اعذريني، كرمى لله — صاح فيليب فيليبَفِتْش في أعقابها محمرًّا وقد ثاب إلى رشده.

فزاد بورمنتال من تشمير كميه واتجه نحو شاركف. ونظر فيليب فيليبَفِتْش في عينيه فصعق.

– ما لك يا دكتور! إنني أحضِر ...

مد بورمنتال يده اليمنى وأخذ شاركف من تلابيبه فرَجَّه رجَّة مزقت قميصه من الخلف وقطعت زر قبَّته من الأمام.

اندفع فيليب فيليبَفِتْش يقطع عليه الطريق وشرع ينتزع شاركف الهزيل من بين يدي الجراح المتينتين.

– ليس لك حق بالضرب! — صرخ شاركف شبه مخنوق وهو يجلس على الأرض ويستعيد رشده.

– دكتور! زعق فيليب فيليبَفِتْش.

تمالك بورمنتال نفسه قليلًا وأطلق شاركف الذي ما لبث أن انخرط في البكاء حالًا.

– طيب — فَحَّ بورمنتال — فلننتظر حتى الصباح. سأقيم له زفةً حين يصحو.

وهنا أمسك بشاركف من تحت إبطيه وجرَّه إلى النوم في غرفة الاستقبال، فحاول شاركف إبان ذلك أن يلبط. غير أن ساقيه لم تطيعاه.

باعد فيليب فيليبَفِتْش ما بين ساقيه، فانفصل طرفا مريلته الزرقاء، ثم رفع يديه وعينيه إلى مصباح السقف في الممر ونطق: إي، إي ...

---

[٧] تخلط داريا بين اسم بوليغراف وكلمة تيليغراف (بمعنى مركز الإبراق) نظرًا لغرابة الاسم وضيق أفقها هي، وربما سخرية أيضًا. (المترجم)

الفصل التاسع

غير أن «الزفة» التي توعَّد الدكتور بورمنتال بها شاركف لم تتحقق في الصباح التالي؛ لأن بوليغراف بوليغرافوفوتش كان قد اختفى من البيت، فانتهى بورمنتال إلى قنوطٍ عنيف، وشتم نفسه بكلمة حمار لأنه لم يخبئ مفتاح الباب الرئيسي، ثم راح يصرخ بأن هذا شيء لا يغتفر، وعبَّر في الختام عن أمنيته بأن يقع شاركف تحت حافلة. كان فيليب فيليبَفِتْش جالسًا في المكتب وأصابعه تتخلل شعره، فقال: أتصوَّر ماذا سيحدث في الشارع ... أتصور، «من إشبيليا إلى غرناطة ...» يا إلهي.

– وقد يكون في لجنة السكن أيضًا — قال بورمنتال بعصبيةٍ وخرج راكضًا.

وفي لجنة السكن بلغ خصامه مع الرئيس شفوندر أن جلس الرئيس يخط شكوى إلى المحكمة الشعبية في حي خاموفنيتشسكي وهو يصرخ بأنه ليس حارسًا على ربيب البروفيسور بريوبراجينسكي، سيما وأن هذا الربيب بوليغراف أثبت بالأمس أنه وغدٌ حين أخذ من لجنة السكن سبعة روبلات بحجة شراء كتب من التعاونية.

قام فيودَرْ بتفتيش العمارة من أعلاها إلى أسفلها. وكان قد كسب من هذا العمل ثلاثة روبلات. غير أنه لم يكن من أثرٍ لشاركف في أي مكان.

ولم يتضح إلا شيء واحد، هو أن بوليغراف غادر المنزل عند الفجر بقبعةٍ وشال ومعطف، واختطف زجاجة من نبيذ الفواكه كانت في خزانة الأواني، وجميع وثائقه وقفازَي الدكتور بورمنتال. عبَّرت داريا بتروفنا وزينا عن فرحهما العاصف وأملهما بأن شاركف لن يعود أبدًا. فعشية استدان شاركف من داريا بتروفنا ثلاثة روبلات وخمسين كوبيكًا.

– تستحقين ذلك! — جأر فيليب فيليبَفِتْش ملوِّحًا بقبضتيه. ظل الهاتف يرن طوال اليوم، واستمر يرن في اليوم التالي، فاستقبل الطبيبان عددًا هائلًا من المرضى، وفي اليوم

الثالث أصبح من المُلِحِّ أن يناقشا في المكتب ضرورة إعلام الشرطة التي ينبغي عليها أن تبحث عن شاركف في دوامة موسكو.

وما إن نطقت كلمة «الشرطة» حتى اخترق السكينةَ البديعة في زقاق أبوخَف نباح شاحنة واهتزت النوافذ في المنزل. ثم رن الجرس بقوةٍ ودخل بوليغراف بوليغرافوفتش بكبرياءٍ مفرط. وبصمتٍ كامل خلع القبعة وعلق المعطف على القرون، فتبدَّى في هيئةٍ جديدة. كان يرتدي سترةً جلدية مستعملة، وبنطلونًا أيضًا جلديًّا محكوكًا، وجزمة إنكليزية طويلة تبكل برباطٍ حتى الركب. وفي الحال انتشرت في فسحة المدخل كلها رائحة قطط لا تطاق. صالَب كلٌّ من بريوبراجينسكي وبورمنتال يديه على صدره، كمن ينفذ أمرًا، ووقفا عند إطار النافذة ينتظران أول أخبار بوليغراف بوليغرافوفتش. مسَّد بوليغراف شعره القاسي، وتنحنح، ثم جال بعينيه على نحوٍ أبان أنه يريد أن يغطي ارتباكه باللامبالاة.

– إنني يا فيليب فيليبَفِتْش — شرع بالكلام أخيرًا — قد باشرت العمل.

أصدر كلا الطبيبين صوتًا من الحنجرة جافًّا ومبهمًا ثم تحركا. صحا بريوبراجينسكي أولًا فمد يده وقال: أعطني الورقة.

كان مكتوبًا فيها: «حاملها الرفيق بوليغارف بوليغرافوفوتش شاركف هو بالفعل مدير قسم تطهير مدينة موسكو من الحيوانات الشريدة (القطط وغيرها) لدى لجنة الشئون العامة في موسكو.»

– هكذا — نطق فيليب فيليبَفِتْش بصعوبة — ومن الذي عينك؟! إنني أخمن ذلك بنفسي على كل حال.

– أجل. إنه شفوندر — أجاب شاركف.

– اسمح لي أن أسألك لماذا تنبعث منك هذه الرائحة الكريهة؟

تشمم شاركف سترته باهتمام.

– أجل تنبعث رائحة ... معلوم، حسب الاختصاص، فما أكثر ما خنقنا من القطط بالأمس.

ارتعد فيليب فيليبَفِتْش، ونظر إلى بورمنتال الذي كانت عيناه تشبهان فوهتين سوداوين مصوَّبتين إلى شاركف مباشرة. وبدون أية مقدماتٍ توجه نحو شاركف وقبض على رقبته بسهولةٍ وثقة.

– النجدة — زعق شاركف وعلاه الشحوب.

– دكتور!

– لن أسمح لنفسي بارتكاب أية حماقة، يا فيليب فيليبَفِتْش، فلا تقلق — رد بورمنتال بصوتٍ حديدي وجأر: يا زينا وداريا بتروفنا!

ظهرت هاتان في فسحة المدخل.

– فلتكرر — قال بورمنتال وضغط قليلًا على حنجرة شاركف نحو معطف الفرو — سامحاني ...

– حسنًا، أكرر — أجاب شاركف بصوتٍ مبحوح وهو مصعوق تمامًا، ثم استجمع الهواء فجأة وانتفض محاولًا أن يصرخ «النجدة»، غير أن الصرخة لم تخرج، فغاص رأسه تمامًا في معطف الفرو.

– أتوسل إليك يا دكتور.

أخذ شاركف يهز رأسه إشارة على أنه يذعن وسوف يكرر.

– ... سامحاني يا داريا بتروفنا المبجلة ويا زينا ...

– يا زينا بروكوفيفنا — همست زينة مرعوبة.

– أفٍّ، بروكوفيفنا — قال شاركف بصوتٍ مبحوح وأنفاسه تتسارع.

– ... لأنني أبحت لنفسي ...

– ... أبحت ...

– ... لنفسي بتصرفٍ شنيع ليلًا في حالة سكر ...

– ... سكر ...

– ولن أعود إلى ذلك أبدًا ...

– لن أعو...

– أطلقه، أطلقه يا إيفان أرنولدوفتش — تضرعت المرأتان بصوتٍ واحد — إنك ستخنقه!

أطلق بورمنتال شاركف وقال: هل الشاحنة بانتظارك أنت؟

– كلا — أجاب بوليغراف باحترام — إنها أوصلتني فقط.

– أطلقي الشاحنة يا زينا. والآن ضع في اعتبارك ما يلي: هل عدت من جديدٍ إلى شقة فيليب فيليبَفِتْش؟

– وهل لي مكان آخر! — أجاب شاركف بارتباكٍ وعيناه تائهتان.

– حسنًا. فلتكن إذن أهدأ من الماء وأخفض من العشب. وفي الحالة المعاكسة سيكون لك عندي حساب على كل تصرفٍ وقح ... مفهوم؟

– مفهوم — أجاب شاركف.

ظل فيليب فيليبَفِتْش محافظًا على الصمت طوال وقت تأديب شاركف؛ فقد انكمش عند أعلى النافذة على نحوٍ يُثير الشفقة وراح يقضم ظفره وهو مطرق بعينيه إلى الأرض. ثم رفعهما فجأة نحو شاركف وسأله آليًّا وبصوتٍ أصم: وماذا تفعل بهذه ... بالقطط المقتولة؟

– سنذهب لصنع المعاطيف،[1] — أجاب شاركف — فيعملون منها قبعات تُباع للعمال بالأقساط.

ثم خيم السكون على الشقة واستمر يومين. كان بوليغراف بوليغرافوفتش يذهب صباحًا في شاحنةٍ صاخبة، ويعود مساء فيتناول الغداء بهدوءٍ إلى جانب فيليب فيليبَفِتْش وبورمنتال. ومع أن بورمنتال وشاركف كانا ينامان في غرفةٍ واحدة هي غرفة استقبال؛ فقد كانا لا يتحدثان فيما بينهما؛ مما جعل بورمنتال يحس بالضجر قبل صاحبه.

وبعد حوالي يومين ظهرت في الشقة سيدة كحيلة العينين، نحيفة، ترتدي جوارب بنية فاتحة اللون، فأربكتها روعة الشقة أيما إرباك. كانت في معطفٍ نظيف تسير في أعقاب شاركف، وفي فسحة المدخل اصطدمت بالبروفيسور. توقف البروفيسور ذاهلًا، ثم كوَّر عينيه وسألها: اسمحي لي أن أعرف؟

– إنني سأكتب كتابها، هذه عاملة الآلة الراقنة وسوف تعيش معي. سيكون ضروريًّا إخراج بورمنتال من غرفة الاستقبال، فإن له شقته — أوضح شاركف بتجهمٍ وبوقاحةٍ قصوى.

راحت عينا فيليب فيليبَفِتْش ترفَّان، ثم فكر وهو ينظر إلى السيدة التي تضرجت حمرة، ودعاها باحترامٍ شديد: أرجوك أن تدخلي إلى مكتبي لدقيقة.

– وأنا سأدخل معها — نطق شاركف بسرعةٍ وارتياب.

وهنا انبثق بورمنتال الحازم وكأنما انشقت عنه الأرض.

– عفوًا — قال — إن البروفيسور سيتحدث مع السيدة. أما أنا وأنت فسننتظر هنا.

– لا أريد — رد شاركف بغضبٍ وهو يحاول أن يندفع في إثر فيليب فيليبَفِتْش والسيدة كانت تشتعل خجلًا.

---

[1] جمع معطف على معاطيف هو تكسير متعمد بقصد الإشارة إلى لغة الشارع التي اكتسبها شاركف من الوسط العمالي. (المترجم)

– كلا، اسمح لي — وقبض بورمنتال على ساعد شاركف وذهب على غرفة الكشف.

لم يكن شيء يُسمع من المكتب خلال قرابة خمس دقائق، وفجأة ترامى نشيج السيدة الأصم.

كان فيليب فيليبَفِتْش واقفًا عند الطاولة، فيما السيدة تبكي في منديلٍ من الدانتيلا وسخ.

– لقد قال السافل إنه جرح في المعارك — قالت السيدة وهي تبكي.

– يكذب — أجاب فيليب فيليبَفِتْش بثبات، ثم هز رأسه وتابع: إنني أشفق عليك مخلصًا، ولكن لا يجوز هكذا، مع أول عابر سبيل بسبب وضعه الوظيفي ... فهذا عيب يا طفلتي. إن ما ...

وفتح درج مكتبه ثم أخرج ثلاث ورقات من فئة عشرة روبلات.

– سأسمم نفسي — قالت السيدة وهي تبكي — ففي المطعم حساء مالح يوميًّا ... وهو يهددني، يقول إنه من القادة الحمر ... ويقول: ستعيشين معي في شقةٍ فاخرة ... والأناناس كل يوم ... إن لي روحًا خيرة، يقول، إنني فقط لا أطيق القطط ... وقد أخذ مني خاتمي للذكرى ...

– لا، لا، لا، روح خيِّرة، «من إشبيليا إلى غرناطة» — دمدم فيليب فيليبَفِتْش — عليك أن تصبري، فكم أنت فتيَّة بعد ...

– أحقًّا في هذه البوابة بالذات؟

– خذي النقود ما داموا يعطونها لك قرضًا — زار فيليب فيليبَفِتْش. ثم انفتح الباب على نحوٍ احتفالي، وبناء على دعوةٍ من فيليب فيليبَفِتْش دخل بورمنتال يقود شاركف الذي تراكضت عيناه وراح الشعر ينتصب على رأسه مثل فرشاة.

– سافل — نطقت السيدة وهي تشع بعينيها الباكيتين الملطَّختين، وبأنفها المخطط المطلي بالمساحيق.

– ما سبب هذه الندبة على جبينك، تفضل بالتوضيح لهذه السيدة — سأله فيليب فيليبَفِتْش بخبث.

كان رد شاركف جاهزًا: لقد جرحت في جبهات كولطشاكوف — نبح قائلًا.

نهضت السيدة وخرجت وهي تبكي بصوتٍ عالٍ.

– كُفِّي! — صرخ في إثرها فيليب فيليبَفِتْش — انتظري. خذي الخاتم — قال ملتفتًا إلى شاركف.

خلع شاركف من إصبعه خاتمًا مفرَّغًا له فص من الزمرد.

– طيب — فجأة قال بغض — سأجعلك تتذكرين. غدًا سأقدم لك قرار طردك.

– لا تخافيه — صرخ في إثرها بورمنتال — إنني لن أسمح له بفعل أي شيء — ثم استدار ونظر إلى شاركف نظرة جعلته يتراجع ويصطدم قذاله بالخزانة.

– ما لقبها؟ — سأله بورمنتال — لقبها! زأر فجأة وصار متوحشًا ومرعبًا.

– فاسنتسفا — أجاب شاركف وعيناه تبحثان عن منفذٍ للهرب.

– يوميًّا — لفظ بورمنتال وهو يقبض على زيق سترة شاركف — سأتحرى شخصيًّا في القسم لأعرف إن كانت المواطنة فاسنتسفا قد طردت أم لا. وأي حركة منك ... سأعرف أنك طردتها و... بيديَّ هاتين سأطلق عليك النار في مكانك ... حذار يا شاركف. إنني أكلمك باللغة الروسية!

– عندنا أيضًا توجد مسدسات ... — غمغم بوليغراف، ولكن بذبول شديد، ثم تملص بغتةً واندفع عبر الباب.

– حذارِ! ترامى إليه صوت بورمنتال.

تلك الليلة ومنتصف النهار التالي كانت تجوب الشقة غيمة كتلك التي تسبق العاصفة. ولكن الجميع كانوا صامتين. وهكذا عندما رحل بوليغراف بوليغرافوفتش في اليوم التالي بالشاحنة إلى مكان عمله. وكان قد وخز إحساس خفي كريه، استقبل البروفيسور بريوبراجينسكي في ساعةٍ استثنائية تمامًا رجلًا من مرضاه السابقين، بدينًا، طويل القامة، في زيٍّ عسكري. لقد ألح في طلب مقابلته ونال ما أراد. وحين دخل المكتب دقَّ كعبيه ببعضهما باحترام.

– هل تجددت آلامك أيها العزيز؟ — سأله فيليب فيليبَفِتْش الضامر الوجه: تفضل بالجلوس.

– ميرسي. كلا يا بروفيسور — أجاب الضيف وهو يضع خوذته على زاوية الطاولة — إني مدينٌ لك ببالغ العرفان. إحم ... لقد جئتك لأمرٍ آخر يا فيليب ... إنني أكن احترامًا كبيرًا ... إحم ... لأنبهك. هراء جلي. إنه مجرد وغد — أدخل المُراجِع يده في حقيبته وأخرج ورقة — مليح أنهم أخبروني مباشرة ...

وضع فيليب فيليبَفِتْش منظار (بينسنيه) فوق نظارتيه وشرع يقرأ. تمتم طويلًا بينه وبين نفسه بينما كان وجهه يتغير كل ثانية.

«... وكذلك مهدِّدًا بقتل مسئول لجنة السكن الرفيق شفوندر، ومنه يتضح أنه يخفي سلاحًا ناريًّا. كما أنه يتلفظ بكلامٍ معادٍ للثورة، بل حتى إنه أمر مساعدته الاجتماعية زينايبدا بروكوفيفنا بوننا بحرق إنغلز في المدفأة؛ ذلك أنه منشفي صريح هو مساعده إيفان أرنولدوفتش بورمنتال الذي يعيش في شقته سرًّا دون إذن بالإقامة. أصادق على توقيع نائب مدير قسم التطهير ب. ب. شاركف، مسئول لجنة السكن شفوندر، السكرتير بيستروخن.»

– هل تسمح لي بإبقائها عندي؟ — سأل فيليب فيليبَفِتْش وقد اكتسى وجهه بالبقع — أو، عفوًا، لعلك بحاجةٍ إليها بغية دفع القضية في مجراها القانوني؟

– اعذرني يا بروفيسور — غضب المُراجِع بشدة وانتفخ منخراه — إنك بالفعل تنظر إلينا بازدراء كبير. أنا ... — وهنا شرع بتبجحٍ مثل ديك رومي.

– ولكن اعذرني، اعذرني أيها العزيز — غمغم فيليب فيليبَفِتْش — سامحني، حقًّا إني ما أردت إزعاجك.

– إننا نحسن قراءة الأوراق يا فيليب فيليبَفِتْش!

– لا تغضب يا عزيزي، فلشد ما خلخل أعصابي هو ...

– أتصور — هدأ المراجع تمامًا — يا له من تافه، على كل حال! إن بي فضولًا لأنظر إليه، ففي موسكو يحكون عنك خرافات كاملة.

اكتفى فيليب فيليبَفِتْش بأن نفض يده بقنوط. وهنا رأى المراجع أن البروفيسور قد أحدودب بل حتى وغزاه الشيب في المدة الأخيرة.

نضجت الجريمة وسقطت مثل حجر، كما يحدث في العادة. عاد بوليغراف بوليغرافوفتش في الشاحنة وقلبه ينذره بالسوء. دعاه صوت فيليب فيليبَفِتْش إلى غرفة الكشف. جاء شاركف متعجبًا ونظر بخوفٍ مبهم إلى فم كلٍّ من بورمنتال وفيليب فيليبَفِتْش. كانت سحابة تدور حول الطبيب المساعد وكانت يده القابضة على سيكاره ترتعش فوق الذراع اللمَّاعة لكرسيِّ التوليد.

قال فيليب فيليبَفِتْش بهدوءٍ مفعم بالغضب: فلتجمع الآن أغراضك، البنطلون والمعطف وكل ما يلزمك، ولتنصرف من الشقة.

– كيف هذا؟ — عجب شاركف صادقًا.

– انصرف من الشقة اليوم — كرر فيليب فيليبَفِتْش بالنغمة نفسها، محدقًا إلى أظافره.

انتقلت روحٌ شريرة ما إلى بوليغراف بوليغرافوفتش؛ إذ يبدو أن الموت كان بانتظاره. وكان قدره واقفًا قيد أنملة عنه. لقد ألقى بنفسه في أحضان ما لا مفر منه، وأطلق نباحًا غاضبًا متقطعًا.

– لكن ما هذا بالفعل؟ أتظنون أنني عاجزٌ عن إيقاع العقاب بكم؟ فأنا أعيش هنا في مساحة اثني عشر مترًا مربعًا وسأبقى أعيش.

– انقلع من الشقة — همس فيليب فيليبَفِتْش بصوتٍ مخنوق لقد استدعى شاركف موته بنفسه؛ فقد رفع نحو فيليب فيليبَفِتْش يده اليسرى المعضوضة التي تفوح منها رائحة قطط لا تطاق وقام بحركةٍ بذيئة. وبيده اليمنى أخرج مسدسًا من جيبه وصوَّبه نحو بورمنتال الخطير. سقطت سيكارة بورمنتال مثل شهاب، وبعد بضع ثوانٍ كان فيليب فيليبَفِتْش يقفز فوق الزجاج المكسر ويجري مرعوبًا بين الخزانة وسرير الكشف. وعلى سرير الكشف كان مدير قسم التطهير يستلقي باسطًا ذراعيه وهو يشخر، وعلى صدره يجثم الجرَّاح بورمنتال يكتم أنفاسه بمخدةٍ بيضاء صغيرة.

وبعد بضع ثوانٍ عبَر الدكتور بورمنتال، وقد تبدل وجهه، إلى الباب الرئيسي وعلَّق ورقةً بجانب زر الجرس: «يُلغى الاستقبال اليوم بسبب مرض البروفيسور، الرجاء عدم الإزعاج بقرع الجرس.»

ثم قطع سلك الجرس بشفرةٍ مبراة لماعة، وتفحص في المرآة وجهه المخدش المدمى، ويديه المثخنتين بالجروح وهما ترتجفان برعشةٍ خفيفة، ثم وقف في باب المطبخ وقال لزينا وداريا بتروفنا المتوجستين.

– يرجوكما البروفيسور ألا تغادرا الشقة.

– حسنًا — أجابت زينا وداريا بتروفنا بارتباك.

– اسمحا لي أن أقفل باب المدخل الخلفي وأحتفظ بالمفتاح — قال بورمنتال وهو يختبئ وراء الباب في الظل ويخفي وجهه بكفيه — هذا شيء مؤقت، ليس لقلة الثقة بكما، ولكن قد يأتي أحدٌ فلا تصران وتفتحان الباب، في حين لا يجوز تعطيلنا، فإننا مشغولان.

– حسنًا — أجابت المرأتان وعلاهما الشحوب حالًا.

أقفل بورمنتال الباب الخلفي واحتفظ بالمفتاح، وأغلق الباب الرئيسي والباب المفضي من الممر إلى فسحة المدخل، ثم تبددت خطواته عند غرفة الكشف.

خيَّم السكون على الشقة وتغلغل في زواياها جميعًا. تسربت أذيال العتمة كريهة، كوحشٍ، وعمَّ الظلام.

والحقيقة، فإن الجيران الذين في الطرف الآخر من الفناء زعموا فيما بعد أن جميع الأضواء عند بريوبراجنسكي كانت مشتعلة في نوافذ غرفة الكشف في ذلك المساء، بل وحتى إنهم شاهدوا البروفيسور نفسه وهو بقبعته البيضاء ... إن التأكد من ذلك صعب، والحقيقة فإن زينا نفسها، بعدما انتهى كل شيء. كانت تثرثر وتقول بأن إيفان أرنولدوفتش أرعبها حتى الموت قرب الموقد في المكتب، بعد أن خرج هو والبروفيسور من غرفة الكشف. وزعمت أنه كان يجلس القرفصاء في المكتب، وبنفسه يحرق في الموقد دفترًا أزرق الجلد بلون الدفاتر التي كانوا يسجلون فيها قصة مرضى مراجعي البروفيسور. وزعمت بأن وجه الدكتور كان أخضر تمامًا. وكان كله، أجل كله ... مثخنًا بالخدوش. لم يكن فيليب فيليبَفِتْش يشبه نفسه ذلك المساء، وكذلك أن ... على أية حال، قد تكون هذه الفتاة البريئة من شقة بريتشيستِنْسكَيا تكذب أيضًا ...

يمكن تأكيد شيء واحد، هو أن الهدوء في الشقة ذلك المساء كان كليًّا وبالغ الرعب.

الخاتمة

بعد انقضاء عشرة أيام بلياليها على المعركة في غرفة الكشف بشقة البروفيسور بريوبراجينسكي الواقعة في زقاق أبوخَف، أصدر الجرس رنينًا حادًّا. وسَّببت الأصوات وراء الباب خوفًا مميتًا لزينا: الشرطة الجنائية والمحقق، تكرَّمي وافتحي.

تراكضت الخطوات، تعالى وقْعها، وأخذوا بالدخول، فاجتمع حشدٌ من الناس في غرفة الاستقبال المتألقة بالأضواء والخزانات التي أعيد تزجيجها من جديد. كان ثمة اثنان في زي الشرطة، وشخص في معطفٍ أسود ومعه حقيبة، والمسئول شفوندر وهو شامت شاحب، والفتى-المرأة، والبواب فيودَرْ، وزينا وداريا بتروفنا وبورمنتال الذي لم يكمل ارتداء ثيابه فراح يستر حنجرته خجلًا لأنه دون ربطة عنق.

خرج فيليب فيليبَفِتْش من باب مكتبه وهو يرتدي مريلته الزرقاء التي يعرفها الجميع. وكان بوسع كل واحدٍ أن يقتنع حالًا بأن صحة فيليب فيليبَفِتْش قد تحسنت كثيرًا في الأسبوع الأخير. وأمام زوار الليل مثل فيلي فيليبَفِتْش كما كان من قبل: قويًّا، حيويًّا، مليئًا بالكرامة، واعتذر لأنه في المريلة.

– لا تخجل يا بروفيسور — ردَّ الرجل المدني بارتباكٍ كبير، ثم تململ وأردف: ثمة شيء كريه جدًّا؛ فإن لدينا أمرًا بتفتيش شقتكم و... — مال الرجل بنظره إلى شاربَي فيليب فيليبَفِتْش ثم أكمل: وبالاعتقال، تبعًا للنتائج.

كوَّر فيليب فيليبَفِتْش عينيه وسأل: اسمح لي بالسؤال عن نوع التهمة ولمن؟

حكَّ الرجل خده وشرع يقرأ ورقةً من الحقيبة.

– بتهمة بريوبراجينسكي وبورمنتال وزينايدا بوننا وداريا بتروفنا بقتل نائب مدير قسم التطهير في بلدية موسكو بوليغراف بوليغرافوفتش شاركف. غطى نشيج زينا آخر كلماته. ودبت حركة.

– لا أفهم شيئًا — أجاب فيليب فيليبَفِتْش وهز كتفيه هزةً ملكية — من هو شاركف هذا؟ آخ، عفوًا، تعنون كلبي ... الذي أجريت له عملية جراحية؟

– عفوًا يا بروفيسور، لا نعنيه كلبًا، وإنما عندما كان قد أصبح إنسانًا. تلك هي القضية.

– أي عندما كان يتكلم؟ — سأل فيليب فيليبَفِتْش ... — إن هذا لا يعني بعدُ أنه أصبح إنسانًا. وعلى أية حال، فهذا ليس مهمًّا. إن شاركف ما يزال حيًّا حتى الآن، ولم يقم أحدٌ بقتله أبدًا.

– عندئذٍ يا بروفيسور — قال الرجل الأسود باستغرابٍ شديد ورفع حاجبيه — يجب إظهاره. لقد ضاع منذ عشرة أيام، بينما المعلومات، اعذرني، سيئة جدًّا.

– تكرَّم يا دكتور بورمنتال بإظهار شاركف للمحقق — طلب منه فيليب فيليبَفِتْش وهو يتناول الأمر. ابتسم الدكتور بورمنتال بسخريةٍ وخرج. وحين عاد وشرع يصفر قفز خلفه من باب المكتب كلب من نوعٍ غريب. كان في جلده بقع جرداء، وأخرى نبت فيها الشعر. خرج الكلب على خلفيته كأنه مدربٌ في السيرك، ثم وقف على أرجله الأربع وراح ينظر. خيَّم صمت القبور في غرفة المكتب كثيفًا كحلوى رجاجة. نهض الكلب الرهيب الشكل على خلفيته من جديد، وعلى جبينه ندبة قانية، فابتسم وجلس على الكنبة.

رسم الشرطي الثاني إشارة صليب واسعة على صدره وتراجع فداس على قدمَي زينا كلتيهما.

نطق الرجل ذو المعطف الأسود بالكلمات التالية دون أن يغلق فمه: وكيف، اسمحوا لي؟ ... لقد كان موظفًا في التطهير ...

– إنني لم أعيِّنه هناك — أجاب فيليبَفِتْش — لقد أعطاه السيد سفوندر تزكية. إن لم أكن مخطئًا.

– إنني لا أفهم شيئًا — قال الأسود محتارًا والتفت إلى الشرطي الأول — أهذا هو؟

– هو — أجاب الشرطي بصوتٍ أصم ... شكليًّا هو.

– هو بالضبط — سمع صوت فيودَرْ. غير أن الوغد اكتسى بالشعر من جديد.

– كان يتكلم ... خي-خي ...

– وما زال يتكلم حتى الآن، إنما أقل فأقل، فلتنتهزوا المناسبة وإلا فإنه سرعان ما سيصمت كليًّا.

– ولكن لماذا؟ استفسر الرجل الأسود بصوتٍ خفيض.

هز فيليب فيليبَفِتْش كتفيه.

– ما يزال العلم لا يعرف طريقة لتحويل الوحوش إلى بشر. وها أنا قد جربت، ولكن دونما نجاح، كما ترى؛ فقد كان يتكلم وبدأ يتحول إلى الحالة البدائية. لكنه الارتداد إلى الأصل.

– ممنوع التعبير بكلماتٍ بذيئة! — فجأة نبح الكلب من على الكنبة ونهض.

بغتة شحب لون الرجل الأسود وأسقط الحقيبة وهوى على جنبه، فأمسك به الشرطي من الجنب وفيودَرْ من الخلف. حدث هرجٌ ومرج وكان أوضح ما يسمع إذ ذاك ثلاث عبارات: فيليب فيليبَفِتْش: «هاتوا قطرة فاليريانكا. هذا إغماء.»

الدكتور بورمنتال: «بيديَّ هاتين سألقي بشفوندر من على السلم إذا عاود المجيء مرة ثانية إلى شقة البروفيسور بريوبراجينسكي.»

وشفوندر: «أرجو تدوين هذه الكلمات في المحضر.»

كانت أكواع الأنابيب الرمادية تبعث الدفء. وكانت الستائر تحجب الليل الدامس ونجمته الوحيدة في شارع بريتشيستِنْسكَيا.

أما الكائن الأعلى، الصلف، المحسن على الكلب، فكان جالسًا في كنبته، فيما يضطجع الكلب شارك متكئًا إلى سجادةٍ بالقرب من الأريكة الجلدية. وفي الأصباح كان ضباب آذار يسبب له آلامًا تحيط برأسه كله على امتداد الجرح. غير أن هذه الآلام كانت، بفعل الدفء، تزول مع اقتراب المساء. أما الآن فقد هان الأمر، قد هان. وراحت الأفكار تنساب في رأس الكلب منتظمة ودافئة.

«كم أسعفني الحظ، كم أسعفني — خطر له وهو يغفو — لقد أسعفني على نحوٍ لا يوصف. ها قد استقرت بي الحال في هذه الشقة. وإنني لكامل الثقة بأن ثمة شيئًا يشوب أصلي. ولا بد أن للغطاس علاقة ما بذلك. فجدتي كانت داعرة، رحمها الله، تلك العجوز، حقًّا. لقد شقوا رأسي لسببٍ ما، ولكن هذا لن يلبث أن يلتئم. ولا داعي لنا للتفكير بذلك.»

في مكانٍ غير بعيد كانت الزجاجات تصطدم وتبعث صوتًا أصم. فقد كان المعضوض ينظف الخزائن في غرفة الكشف.

أما الساحر الأشيب فكان جالسًا يدندن:

– «إلى شواطئ النيل المقدسة ...»

كانون الثاني/آذار ١٩٢٥م

موسكو


هنداوي